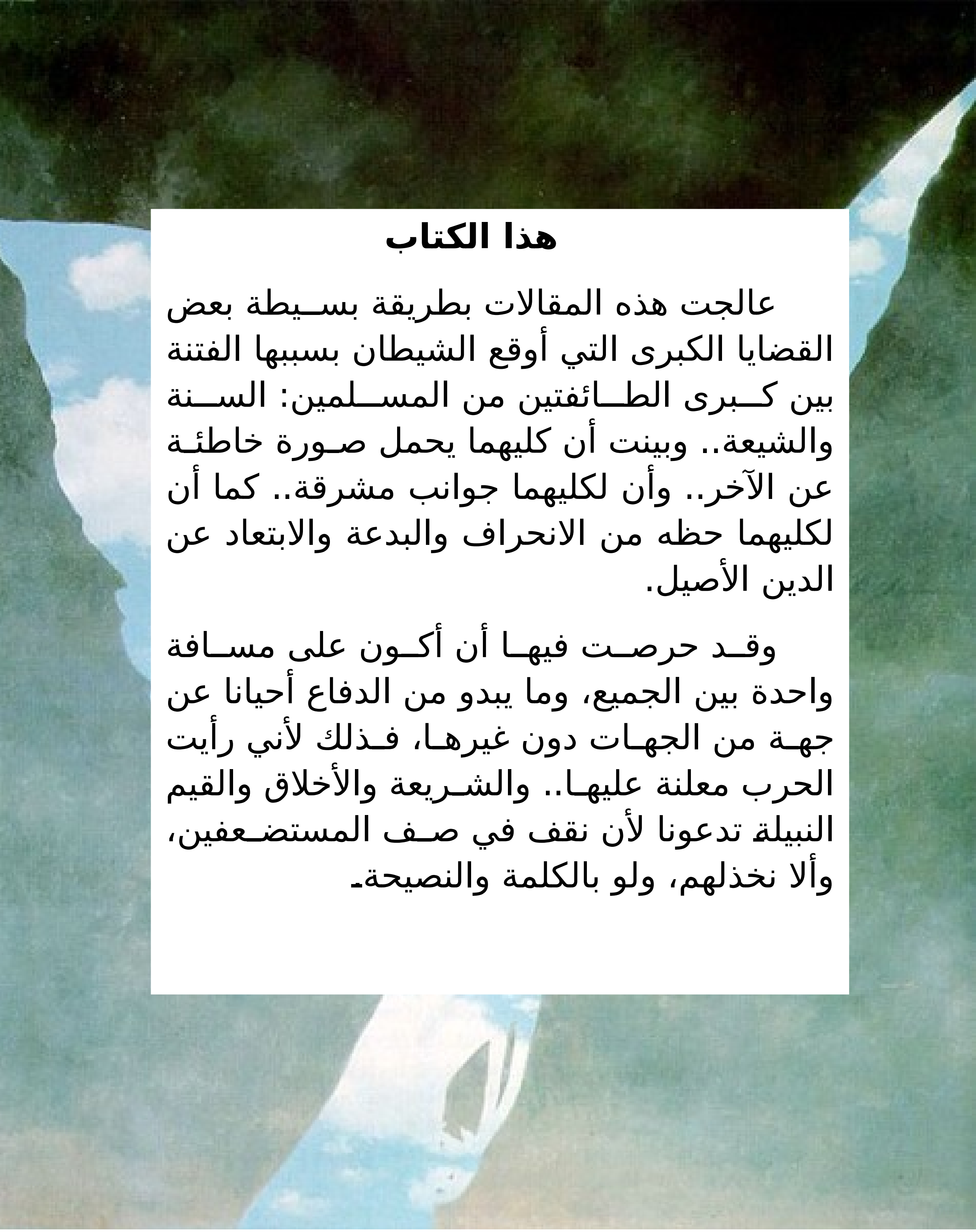


الدين .. والأجل
(١٤)

ولا تفرقوا

مقالات في الحوار السني الشيعي

د. نور الدين أبو لحية



هذا الكتاب

عالجت هذه المقالات بطريقة بسيطة بعض القضايا الكبرى التي أوقع الشيطان بسببها الفتنة بين كبرى الطائفتين من المسلمين: السنة والشيعة.. وبينت أن كليهما يحمل صورة خاطئة عن الآخر.. وأن لكليهما جوانب مشرقة.. كما أن لكليهما حظه من الانحراف والبدعة والابتعاد عن الدين الأصيل.

وقد حرصت فيها أن أكون على مسافة واحدة بين الجميع، وما يبدو من الدفاع أحيانا عن جهة من الجهات دون غيرها، فذلك لأني رأيت الحرب معلنة عليها.. والشريعة والأخلاق والقيم النبيلة تدعونا لأن نقف في صف المستضعفين، وألا نخذلهم، ولو بالكلمة والنصيحة.

الدين .. والدجل

(14)

ولا تفرقوا..

مقالات في الحوار السني الشيعي

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1438 – 2017

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

هذه مقالات كتبتها في مناسبات مختلفة، لكنها تجتمع لتحقيق هدف واحد هو الدعوة للتقارب بين المذاهب الإسلامية، وخصوصا بين الطائفتين الكبيرتين في الأمة: السنة والشيعة.

وليس قصدي منها أن تنتفي الخلافات بينهما، ولا أن يتحول السنة إلى شيعة، ولا الشيعة إلى سنة.. فذلك لا أهمية له بالنسبة لي، فقد يتحول الشيعي إلى سني متطرف ممتلئ بالأحقاد.. وقد يتحول السني إلى شيعي خرافي غارق في الأساطير والأوهام.. وبذلك يتخلص كل منهما من علة ليقع في علة، أو يتهرب من وضع ليقع في وضع لا يقل خطورة عنه.

وإنما هدفي منها هو ردم بعض الحفر التي حفرها المغرضون بين هاتين الطائفتين الكبيرتين، وتبيين أن نقاط الخلاف محدودة، وأنه يمكن تجاوزها، وأننا يمكن أن نعيش بمشاعر [الأمة الواحدة] في ظل ذلك الاختلاف.

ولتحقيق هذا الغرض عالجت هذه المقالات بطريقة بسيطة بعض القضايا الكبرى التي أوقع الشيطان بسببها الفتنة بين كلتا الطائفتين.. وبينت أن كليهما يحمل صورة خاطئة عن الآخر.. وأن لكليهما جوانب مشرقة.. كما أن لكليهما حظه من الانحراف والبدعة والابتعاد عن الدين الأصيل.

وقد حرصت فيها أن أكون على مسافة واحدة بين الجميع، وما يبدو من الدفاع أحيانا عن جهة من الجهات دون غيرها، فذلك لأني رأيت الحرب معلنة عليها.. والشريعة والأخلاق والقيم النبيلة تدعونا لأن نقف في صف المستضعفين، وألا نخذلهم، ولو بالكلمة والنصيحة.

وأنا أعلم أن الكثير مما كتبته فيها لن يرضي الكثير من الأطراف، ففي السنة متشددون يعتبرون التقارب بين المسلمين بدعة وضلالة، ويسلطون كل سيوف حقدهم على من يدعو إلى ذلك.. ويحتجون له بأن بعض المشايخ

كالقرضاوي، بعد أن أمضى سنين من عمره يدعو إلى الوحدة والتقارب ندم على ذلك، وعلم أن إخوانه وزملاءه من السلفيين كانوا على حق..

ولست أدري كيف يرد الفكر المستنير الوحدوي لجيل من أفاضل العلماء كالشيخ شلتوت والمراغي وأبو زهرة والغزالي وغيرهم كثير، بتراجع شخص واحد، لسنا ندري أهدافه ولا دوافعه ولا المتآمرون الذين يقفون خلفه.

ومثل هؤلاء الداعين للفتنة في المعسكر السني نجدهم في المعسكر الشيعي بدعوى حماية المذهب أو رفع التقية.. وهؤلاء الذين تمولهم أمريكا وبريطانيا، ولهم مؤسسات إعلامية في تلك الدول.

وليتهم اكتفوا بمعارضة التقارب .. بل إنهم راحوا إلى مقدسات المسلمين وخصوصا ما يتعلق بعرض رسول الله ﷺ الذي اتفقت الأمة على تنزيهه وعصمته، يسيئون إليه، ليتستثيروا غيرة المسلمين، وليملأوا قلوبهم أحقادا وظغائن.

وللأسف .. فإن أولئك الحاقدين من السنيين الذين وقفوا في وجه التقارب لم يخطو خطوة تجاه هذا المعسكر الشيعي المبتدع، ولم يطالبوا بإغلاق قنواته الفضائية المسمومة، وإنما راحوا للقنوات الداعية للتقارب يحرضون عليها، ويطالبون بغلقها، بل يغلقونها بالفعل، ويستغلون أولئك الأغبياء المتآمرين.

وأنا أعلم في الأخير بأن هذا جهد المقل.. ولذلك أتمنى من زملائي الباحثين أن يسعوا لتحقيق هذه الغاية النبيلة، ويحيوا تلك الدار المباركة التي قامت لإحياء سنة التقارب بين المذاهب الإسلامية، والتي يسعى الآن كل المغرضون لهدمها.

وهم يتناسون كل تلك الأوامر القرآنية الناهية عن الشقاق والخلاف بين المسلمين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159]، فهذه الآية الكريمة تضع معيارا خطيرا للمنحرفين عن رسول الله ﷺ وعن دينه

الأصيل، وهو تفريق الدين، وتحويله إلى شيع يحارب بعضها بعضها، ويفخر بعضها على بعض.

وقد علمنا الله تعالى الموقف الصحيح الذي نقفه عند وقوع مثل هذا النزاع، فقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: 9]، فالآية الكريمة لا تشير إلى النزاع المسلح فقط، بل تشير معه إلى النزاع الأخطر وهو نزاع الأفكار المختلطة بالأهواء.

فالواجب الشرعي في كليهما ليس في تحريض طرف على طرف، وإنما في الصلح الذي نص القرآن الكريم على وجوبه في كل حالة، فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: 10]

وهكذا أخبر رسول الله ﷺ أن من أفضل الأعمال الصلح بين المسلمين، ففي الحديث، قال رسول الله ﷺ : (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام، والصلاة، والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة، لا أقول: هي تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين)[1]

هذه بشارة رسول الله ﷺ .. ونحن نسعى أن يمن الله علينا بتحقيقها حتى نغطي قصورنا في نوافل الصلاة والصيام والصدقات.. ونسأل الله أن يتقبل منا.

---

[1] رواه الترمذي، وأبو داود.

تهمة التقارب

مع أن الدعوة للتقارب بين المذاهب والطوائف والأديان والبشر بمختلف أعراقهم هي دعوة قرآنية بالدرجة الأولى إلا أنها أصبحت في العصر الحديث - وبفعل العقول التي استسلمت للأهواء السياسية الغبية، واستسلمت معها للمؤامرة الحانقة الذكية - تهمة لا تقل عن تهمة الزندقة والبدعة التي كان يكيلها أسلاف رجال الدين الجدد لمخالفيهم في الفكر والمعتقد.

أما كونها دعوة قرآنية بالدرجة الأولى، فيتضح من خلال معان قرآنية كثيرة، نذكر خمسة منها باختصار:

أولها: إخبار الله تعالى بأن الغرض من التنوع والاختلاف بين البشر هو التعارف، لا الصراع، قال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: 13]، فالآية الكريمة لا تدعو إلى التقارب بين المذاهب في الدين الواحد فقط، بل تدعو إلى التقارب بين الأمم والشعوب جميعا بمختلف أديانها وأعراقها وتوجهاتها الفكرية، لأنه لا يمكن للبشر أن يحققوا كمالهم الإنساني في ظل الصراع والتباعد.

ثانيها: إخبار الله تعالى بالرسالة العالمية لرسول الله ﷺ.. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107]، وهذا يقتضي من المسلمين العمل على كل ما ييسر وصول هذه الرحمة الإلهية للناس أجمعين، وذلك لا يكون إلا بالتقارب والتآلف معهم، بل والصبر عليهم حتى تصل إليهم الرسالة مضمخة بعطر الرحمة والألفة والمودة.

ثالثها: إخبار الله تعالى بالمهمة الكبيرة التي أناط بها هذه الأمة، وهي مهمة الشهادة على الأمم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة: 143)، وهي تعني أن يقوم

المسلمون بنفس الدور الذي قام به رسول الله ﷺ نحو الأمم المختلفة، لتنصاع لأمر الله بمحبة ومودة، لا بشدة وإكراه، وقد قال تعالى يبين كيفية أداء رسول الله ﷺ لدوره الدعوي مع العرب الذي عاش معهم، والمعروفين بشدتهم وغلظتهم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]، فهل يتصور عاقل بأن يدخل العرب إلى دين الله باللين والرحمة، ويدخل غيرهم فيه بالشدة والعنف.

رابعها: دعوة الله تعالى الدعاة عباده إلى استعمال كل أساليب الهداية ووسائلها، والتي اجتمعت في قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: 125]، وهذه الوسائل والأساليب جميعا تستدعي التقارب، لأنه لا يمكن أن نعظ أو نحاور ونخاطب من تحول بيننا وبينه الحجب المادية والمعنوية الكثيرة.

خامسها: ما ذكره القرآن الكريم من نماذج الحوار مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى، مع ما يحملونه في عقائدهم من أحقاد لا على الصحابة والتابعين من المسلمين، وإنما على الأنبياء أنفسهم، بل إنهم في كتبهم يضعون صورة مشوهة لله، ممتلئة بالتجسيم والتشويه، ومع ذلك يقول الله تعالى داعيا إلى التقارب معهم: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: 64]، وانظروا كيف اعتبر الله تعالى إلههم - أي إله اليهود والنصارى - هو نفسه إله المسلمين مع ما يحملونه في دينهم عن الله من تشويه، ومع ذلك لم يقطع الصلة بهم، بل لم يقطعها حتى بعد رفضهم لتلك الدعوة، فليس في النصوص القرآنية أي دعوة لقطع العلاقة مع أي دين من الأديان، أو شعب من الشعوب إلا مع المحاربين الذين يأبون الحديث إلا بلغة السيف.

هذه بعض الأمثلة عن دعـوة القـرآن الكـريم للتقـارب مـع البشـر جميعـا بمختلـف أديـانهم وطـوائفهم وأعـراقهم.. لكن المسـلمين بسـبب ابتعـادهم عن المنهج القـرآني، وعن التربيـة النبويـة السـامية جلسـوا في أبـراج الكـبر العاجيـة، ووضـعوا المسـافات الهائلـة بينهم وبين الأمم المختلفـة، حـتى تجـرأوا فصنفوا الدار التي يسكنون فيها [دار إسـلام] يـأمن سـاكنها في الدنيا، ويسعد في الآخرة، أما دور غيرهم، فسموها [دار حـرب] تباح لهم أموالها ودماؤها وأعراضها، ثم يصـلى أهلهـا بعـدها نـار جهنم وبئس المصير.

وليت الأمـر اقتصـر على ذلـك، بـل ضـاق هـؤلاء ذرعـا بأنفسـهم، وبالمسـلمين من حـولهم، فراحـوا يصـنفونهم إلى طبقات مختلفة، لا تقل سوءا عن الطبقات الـتي وضـعها رجـال الدين الهندوسي لمجتمعاتهم وأتباع دينهم..

ولم يكتفوا بذلك، بل وضعوا الجدر الـتي تحمي كـل طبقـة عن التواصل مع الطبقـات الأخـرى، ووضـعوا تهمـة جديـدة في تجريح كل عالم يحمل نفسا إنسانية وروحا قرآنية تجعل صـدره يتسع لكل مخالف، وتجعل جسده لا ينفر من الجلـوس والحـوار والتقارب مع أي بشر كان، لا يهمه دينه ولا عرقه ولا مذهبه.

وقـد طـالت هـذه التهمـة كـل من يحمـل تلـك النفس الإنسانية، حتى لو كـان علمـا من أعلام الأمـة الكبـار من أمثـال الشيخ محمد أبي زهرة وشيخ الأزهر محمود شـلتوت والمفسـر الكبير مصطفى المراغي والداعية المجدد الكبير الشـيخ محمـد الغزالي، وغيرهم كثير، والذين صارت إنسانيتهم وقرآنيتهم التي جعلتهم يتواصلون مع إخوانهم من أصـحاب المـذاهب المختلفـة تهمة يجرحون على أساسها، وتمنع قراءة كتبهم أو الاطلاع على فكرهم أو ترديده في أي محل.

وعنـدما تحـدثت في بعض المجـالس عن تصـريح للشـيخ محمد الغـزالي للطليعـة الإسـلامية ردا على سـؤال حـول دوره في جماعة التقريب فقال: (نعم أنا كنت من المعنيين بـالتقريب بين المذاهب الإسلامية وكـان لي عمـل دؤوب ومتصـل في دار

التقريب في القـاهرة وصـادقت الشـيخ محمـد تقي القمي كمـا صـادقت الشـيخ محمـد جـواد مغنيـة ولي أصـدقاء من العلمـاء والأكابر من علماء الشيعة)[1]

وذكرت قوله في كتابه [كيف نفهم الإسـلام]: (ولقـد رأيت ان أقوم بعمل إيجابي حاسـم سـداً لهـذه الفجـوة الـتي صـنعتها الأوهام، بل إنهاء لهذه الفجوة التي خلقتهـا الأهـواء، فـرأيت أن تتولى وزارة الأوقاف ضم المذهب الفقهي للشيعة الإمامية إلى فقـه المـذاهب الأربعـة المدروسـة في مصـر، وسـتتولى إدارة الثقافـة تقـديم أبـواب العبـادات والمعـاملات في هـذا الفقـه الإسلامي للمجتهدين من إخواننا الشيعة، وسيرى أولـوا الألبـاب عند مطالعة هذه الجهود العلمية أن الشـبه قـريب بين مـا ألفنـا من قراءات فقهية وبين ما باعدتنا عنه الأحداث السيئة)[2]

عندما قرأت ذلك قامت القيامـة علي، وأخـرج لي بعضـهم كتابا لمقبل الوادعي يقول فيه عن الغزالي: (إن محمدا الغزالي داعيـة كبـير، ولكن إلى الضـلال، وأعتقـد أنـه لـو كـان في زمن الإمام أحمد لحكم عليه بالزندقة)[3]

وأخرج لي آخر كتابـا آخـر لربيـع المـدخلي اسـمه (جماعـة واحد لا جماعات) قال فيه كلامـا عن الغـزالي يربـأ لسـاني عن ذكره هنا.

بعـد أن رأيت الجمـوع تصـفق لـدعاة الفتنـة والطائفيـة والتعـالي، ورأيتهـا تعـرض عن الغـزالي وشـلتوت وأبي زهـرة وتقبل على الوادعي والمـدخلي والحـربي عـرفت أن المـؤامرة على الأمة ستتم بنجـاح، وسـيأكل بعضـها بعضـا، وهـذا مـا نـراه ونعيشه، وسنرى إن بقينا على هذه الحالة ما هو أشنع وأشد.

---

[1] مجلة الطليعة الإسلامية (عدد 26 مارس)

[2] كيف نفهم الإسلام، ص118.

[3] فضائح ونصائح، ص 38.

من الصعب جدا على الإنسان أن يكتشف في عرصات القيامة أنه لم يكن يعبد الله، بل كان يعبد هواه، وأنه لم يكن يتبع نبيه، وإنما كان يتبع أصناما عجنها بشهواته وأهوائه وأعانه الشيطان على تشكيلها، وأنه فوق ذلك كله لم يكن في حياته جميعا من حزب الله، وإنما كان من حزب الشيطان.. وأن تسميته لنفسه بالسني أو السلفي أو غيرها من الألقاب لم تكن إلا خدعة شيطانية ضحك بها الأبالسة عليه ليستضيفوه معهم في دركات جهنم..

هذه ليست أوهاما ولا مخاوف زائفة، بل هي مخاوف حقيقية تراود عقل وقلب كل إنسان اقتنع اقتناعا تاما بأنه قد وضع في هذه الدنيا في وضع امتحان وابتلاء واختبار لتبلى سريرته، ويكشف عن معدنه، ويزف بعد ذلك إلى المقر الذي يتناسب معه إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

وهذه الحقيقة لا يدعو إليها التأمل العقلي فقط، بل يدعو إليها قبل ذلك وبعده القرآن الكريم رسالة الله إلى عباده، ففيها من الإنذارات المشددة ما ترتجف له الأفئدة.. فالأمر ليس هزلا، وليس لعبة الأطفال.. والمصير الأبدي الذي ينتظرنا، وينتظر البشرية جميعا بحلوه ومره مرتبط باختياراتنا، والشيطان متربص بنا في كل لحظة.. لا يدع محلا من الخير والشر إلا راودنا فيه لينحرف بنا إلى جهته، وليحقق وعده لربه حين قال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40)﴾ [الحجر: 39، 40]

وقد رسم رسول الله ﷺ صورة توضح دور الشيطان في الانحراف بالإنسان عن سبيل الله، فقد حدث عبد الله بن مسعود قال: خط لنا رسول الله ﷺيوما خطا، وخط عن يمينه خطا، وخط عن يساره خطا، ثم قال: (هذا سبيل الله)، ثم خط خطوطا فقال: (هذه سبل، على كل سبيل منها شيطان يدعو

إليـه)، وقـرأ ﴿أَنَّ هَـذَا صِـرَاطِي مُسْـتَقِيمًا فَـاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُـوا السُّبُلَ﴾ [الأنعام: 153][1]

وبناء على هذا كانت خطـورة البحث عن حقيقـة انتماءاتنـا وتوجهاتنا الفكرية والسلوكية.. فهي ليس مجرد اختيارات عبثية، وإنما هي اختيارات ينبني عليها مصيرنا وحياتنا الحقيقية.

ولهذا، فإن القرآن الكريم يحذرنا من التبعيـة.. لأن التبعيـة تجعل صاحبها مغلول العقل، لا يفكر بما أعطاه الله من طاقات ومدارك، وإنما يفكـر بعقـول غـيره، ومـدارك غـيره، والـتي قـد يستحوذ عليها الشيطان، فيملؤها ببرامجه المضادة لبرامج اللـه لعباده.. قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا لَـوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَـا تَبَـرَّءُوا مِنَّا كَـذَلِكَ يُـرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَـالَهُمْ حَسَـرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَـا هُمْ بِخَـارِجِينَ مِنَ النَّارِ (167)﴾ [البقـرة: 166ـ 167]، والآية جاءت مطلقة هنا، ومن الخطأ الكبير ربطها بأمـة دون أمـة، أو شـعب دون شـعب.. فعدالـة اللـه تقتضـي سريان سنن الله في جميع الشعوب والأمم.

ومثل هذه الآية الكريمة تلك الآيـات الكثـيرة الـتي تتحـدث عن الخصـــومة بين أهـــل النـــار، وخاصـــة بين المســـتكبرين والمستضعفين.. فالمسـتكبرون ليسـوا فقـط رجـال السياسـة، وإنما يدخل فيهم رجـال الـدين.. أي دين كـان.. والمستعضـفون ليسوا فقط الرعية.. بل كل تابع ذليل حتى لو كان عالما علامـة بحرا فهامة.. لأنـه كـان تابعـا لأي رجـل من رجـال الـدين تبعيـة مطلقة، من غير تفكير ولا بحث ولا نظر.

هذه مقدمة ضرورية للحديث عن الفرق بين السنة النبويـة والسـنة المذهبيـة.. فالسـنة النبويـة قيم وحقـائق وسـلوكات ومواقـف تنبـع من الصـدق في البحث والنظـر والتأمـل.. بينمـا السنة المذهبية مجرد تبعية لفريق من الناس تصور البعض أنهم هم السنة، أو أنهم هم النبي نفسه، وأن عليه أن يتبعهم أخطأوا أو أصابوا.. ضلوا أو اهتدوا.. وفي يوم القيامة يكتشـف الحقيقـة

---

[1] () البزار في مسنده [رقم 1865.. 5 / 251]

المرة، ويكتشف أنه لم يكن يعبد الله بل كان يعبد هواه.. وأن كل تلك الألقاب التي كان يفرح بها مجرد خدع شيطانية لبس الشيطان بها عليه، ليزحزحه عن الجنة، ويقذفه في جهنم.

وبناء على هذا، فإن الخطوة الأولى التي ينطلق منها من يريد صادقا أن يتحقق بالسنة النبوية بدل السنة الذهبية، أن يعلم أن السنة النبوية حقائق وليست أفرادا.. وقيما وليست جماعات.. ومعان سامية وليست فرقا ومذاهب، كما قال الإمام علي لبعض الذين راحوا يميزون الحق بالرجال: (إنك لمبلوس عليك، إن الحق والباطل لا يعرفان بأقدار الرجال، اعرف الحق تعرف أهله، واعرف الباطل تعرف أهله)

فالحق مقصود لذاته.. وأما الرجال، فيمكن أن يكونوا معه، ويمكن أن يخالفوا طريقه.. ولهذا فإن العاقل لا يكون إمعة فيما يرتبط بمصيره الأزلي، كما قال ﷺ: (لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا)[1]

ومع أن هذا الذي ذكرناه من البديهيات التي كثيرا ما نرددها، بل ترددها كل الطوائف، لكننا في الواقع العملي نتيه عنها بسبب تلك الأصنام التي تعمر قلوبنا، والتي غذتها المناهج التربوية والقنوات الإعلامية والخطب المنبرية والبيئة الاجتماعية التي لا نستطيع التنصل منها ومن الأفكار التي تطرحها.. فهي جميعا تبشرنا بأننا (أهل السنة والجماعة)، وأننا (الفرقة الناجية)، وأننا حتى لو دخلنا النار، فلن نمكث فيها إلا أيام معدودات بخلاف غيرنا من أهل الأهواء والبدع، والذين سيخلدون في النار لا محالة حتى لو كانوا من أهل الصيام والقيام.. وحتى لو فعلوا ما فعلوا من أنواع البر، لأن الجنة

[1] رواه الترمذي.

مخصصة لنا، ومحرمة عليهم.

ولهـذا قـد تـرى في الشـارع بعض عـوام النـاس ممن لا يصلون، ولا علاقة لهم بالـدين، ولكن بسـبب الحملات الإعلاميـة الطائفية التي تقوم بدورها في نشـرها الفتن، تجـدهم يزعمـون لأنفسهم أنهم ـ مع تركهم للصلاة ولكل شعائر الدين ـ من أهـل السـنة والجماعـة، وتجـدهم يكفـرون غـيرهم من أهـل الملـل والنحل.. بل يقول أحدهم بافتخار: نعم أنا لا أصلي.. ولكـني مـع ذلك من أهل السنة والجماعة.. وأنا أفضل من كل أولئك الـذين يسكنون في تلك البلاد الممتلئة بالشرك والبدع.

وللأسـف لا نجـد العلمـاء ينكـرون عليهم.. بـل نجـدهم يؤيدونهم، فهم يقولـون كـل حين، وعلى جميـع وسـائل الإعلام: نحن أهـل السـنة والجماعـة نشـكل الطائفـة الأكـبر من الأمـة، فنحن أكثر من مليار نسمة، بينما لا يشكل الـروافض والخـوارج وغيرهم سوى ثلة قليلة قد لا تتجاوز بعض مئات الملايين.

وهم يعلمون جيدا أن في هذا المليار الذي يزعمونـه من لا يعرف من الدين لا اسما، ولا رسما، ولا يقيم له وزنا.. ومع ذلك هم يكذبون عليهم، ويمنونهم بالنجاة، وبأن يسقوا من يد رسول الله ﷺ شربة هنية لا يظمأون بعدها أبدا، وكـأن رسـول اللـه ﷺ تحول إلى سقاء للفسقة والفجرة والمنحرفين..

ومن كـذبني فليـذهب لقنـاة الجزيـرة أو قنـاة العربيـة أو غيرهما من قنوات الفتنة ليرى الصـحفيات بكامـل زينتهن، وهن يـزعمن لأنفسـهن أنهن من أهـل السـنة، وأنهن ينتصـرن لأهـل

السنة، ويبكين على أهـل السـنة، ويسـخرن من الرافضـة، ومن صحفيات القنوات الرافضية.

خطورة الحديث عن هذا الموضوع بموضوعية ودقة وبعيـدا عن كـل الحساسـيات لا تكمن في غموضـه أو عـدم وضـوحه.. وإنما تكمن في الموقف ممن يتحدث عنـه سـواء ممن يسـمون أنفسهم [أهـل السـنة]، أو من إخـوانهم ممن يسـمون أنفسـهم [شيعة]

وبما أنني أشعر أنـني في مسـافة واحـدة بينهمـا، فكلاهمـا إخوان لي، بل كلاهما جزء مني، فأنا ــ بحمـد اللـه ــ لا أؤمن إلا بالإسلام الواحد الذي يتعالى على المذاهب والطوائف والفرق.. فإنني ـ مثلما انتقدت الكثير من المنـاهج السـنية ــ أرى نفسـي مضطرا كـذلك ــ حسـب مـا يقتضـيه العـدل، وحسـبما تقتضـيه الشهادة الصادقة لله ـ أن أتعامل مع الشيعة بمثـل تعـاملي مـع إخوانهم من أهل السنة..

فلا يحق لشخص يدعو إلى العدل والصدق، ويعتبرهمــا من أعظم القيم القرآنية والإنسانية، أن ينحـاز لطـرف دون طـرف، أو ينتقد جهة دون جهة.

وهذا المقال موجه بالدرجة الأولى لجهتين من الأمة:

الجهة الأولى: تتمثل في الكثـير ممن يسـمون أنفسـهم [أهل السنة]، والذين يضعون الشيعة جميعا في سلة واحدة، ثم يرمونهم جميعا بحكم واحد.. ويستعملون لـذلك مـا شـاءت لهم أهواؤهم من الأمثلة والنمـاذج، ومـا أسـهل أن يوجـد الشـيطان للحاقـدين والمفـرقين لصـف الأمـة مـا يشـاءون من الشـواهد والأمثلة والنماذج.

وليت هؤلاء تعاملوا مع الشيعة بمثـل مـا يتعـاملون بـه مـع أنفســـهم.. فهم إذا ذكـــر لهم أي نمـــوذج منهم لا يناســـبهم، يسارعون إلى البراءة منه، ويذكرون أنه لا علاقـة لـه بهم.. وإذا ذكر لهم حـديث في مصـادرهم لا يعجبهم، يسـارعون بـذكر من ضعفه، مع أنه من بينهم من صححه.

لكنهم إن تعاملوا مع الشيعة، لم يراعوا فيهم كل ذلك.. بل يلزمونهم بمن شاءت لهم أهواؤهم وشياطينهم التي لا تسعى لشيء كما تسعى لصدع وحدة الأمة.

والجهة الثانية: هم أولئك الذين يسمون أنفسهم [شيعة].. ثم يفخرون بذلك، ويعتبرون أنفسهم خاصة، وغيرهم من الناس عامة.. بل إن بعضهم قد يجنح به الخيال الممزوج بالأهواء، فيزعم لنفسه النجاة.. بل يزعم لنفسه أن يكون مجاورا للأئمة في مقاماتهم السنية.

وقد يأتيه الشيطان، وما أكثر الشياطين في هذا المجال، فيتهم الأمة كلها بعلمائها وعوامها بالنصب .. ثم يرميهم بالنفاق.. ثم يرميهم بعدها في جهنم.. وقبل أن يرميهم فيها يصب عليهم كل ما يمتلئ به قلبه الشيطاني من لعنات وأحقاد.

وينسى في خضم ذلك كله أنه من أخطر النواصب وأشدهم عداء لأئمته الذين يزعم انتسابه لهم.. لأن النصب ليس فقط العداوة لأهل البيت، بل أخطر منه تشويههم وتحريف القيم التي نادوا بها.

هاتان هما الجهتان اللتان أوجه لهما هذا المقال، والذي قد يؤذيهما.. أما غيرهما من أهل السنة المعتدلين المحترمين.. أو إخوانهم من الشيعة الصادقين المتواضعين.. فلا أظن أنني سأضيف شيئا لما عندهما من معان أو مواقف.

وأحب أن أنبه ابتداء إلى أن وجود المبتدعة بين الشيعة.. أو وجود من يشوه التشيع، ويرسم صورة سيئة لأئمة أهل البيت لا يحتاج إلى أدلة.. فالعقل والنقل كلاهما متفقان على الدلالة عليه:

أما العقل.. فواضح، فليس هناك من ادعى العصمة في أفراد الشيعة، ولا في جماعاتهم.. وعدم العصمة يعني احتمال الوقوع في الخطأ.. وهذا الاحتمال يجعلنا محترزين من كل سلوك يمارس باسم التشيع، لأنه قد يكون كذلك، وقد لا يكون كذلك..

والعقل يدعونا إلى عرض أعمال الشيعة على ما يقوله أئمتهم لنرى مدى التوافق والاختلاف.. مثلما يمتحن كل منتسب لجهة من الجهات بما يثبت حقانية انتسابه، وقد روي عن أئمة أهل البيت الكثير من الروايات الدالة على هذا الامتحان، ومنها قول الإمام الصادق: (امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها عند عدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها) [1]

أما النقل، فما أكثر الروايات الدالة على أن الانتساب للتشيع وحده غير كاف في تحقق النسبة.. لأن الانتساب مجرد دعوى، والدعوى لا تقبل إلا بدليل..

ومن تلك الروايات المعروفة والمشتهرة في الأوساط الشيعية، والتي كثيرا ما يرددها خطباء المنابر الحسينية قصة عمار الدهني مع ابن أبي ليلى قاضي الكوفة، ورده شهادته لأنه رافضي، وبكاء عمار وقوله: (أما بكائي على نفسي فإنك نسبتني إلى رتبة شريفة لست من أهلها)[2]

ومنها مرور بعض أصحاب موسى بن جعفر برجل في السوق، ينادي: أنا من شيعة محمد وآل محمد الخلص، وهو ينادي على ثياب يبيعها: على من يزيد ؟ وكلام الإمام في ادعائه الكاذب[3].

ومنها استئذان قوم من الشيعة لزيارة الرضا ، وعدم إذنه لهم لدعواهم الكاذبة [4].

وغير ذلك من القصص الكثيرة المشهورة، والتي تثبت أن التشيع ـ بحسب ما يذكره جميع أهل البيت ـ قيم عظيمة، وأخلاق عالية، وروحانية سامية.. وليس مجرد دعاوى.

1() الخصال: 103 / 62

2() التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري.

3() التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري.

4() التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري.

بل إن أئمة أهل البيت جميعا صرحوا بأن المنتسبين إليهم والموالين لهم ليسوا صنفا واحدا، فعن الإمام الصادق قال: (الشيعة ثلاث: محب واد فهو منا، ومتزين بنا ونحن زين لمن تزين بنا، ومستأكل بنا الناس، ومن استأكل بنا افتقر) (1)

وقال: (افترق الناس فينا على ثلاث فرق: فرقة أحبونا انتظار قائمنا ليصيبوا من دنيانا، فقالوا وحفظوا كلامنا وقصروا عن فعلنا، فسيحشرهم الله إلى النار، وفرقة أحبونا وسمعوا كلامنا، ولم يقصروا عن فعلنا، ليستأكلوا الناس بنا، فيملأ الله بطونهم نارا يسلط عليهم الجوع والعطش، وفرقة أحبونا وحفظوا قولنا، وأطاعوا أمرنا، ولم يخالفوا فعلنا، فاولئك منا ونحن منهم) (2)

ومثله قال الإمام الباقر: (شيعتنا ثلاثة أصناف: صنف يأكلون الناس بنا، وصنف كالزجاج ينم (3)، وصنف كالذهب الأحمر كلما ادخل النار ازداد جودة) (4)، وقال: (الشيعة ثلاثة أصناف: صنف يتزينون بنا، وصنف يستأكلون بنا، وصنف منا وإلينا) (5)

بناء على هذا، فقد رأيت من خلال قراءتي للروايات الصحيحة الواردة عن أئمة أهل البيت أن التفريق بين الشيعي السني والشيعي البدعي يكمن في امتحانه في ثلاثة مواقف:

أولها موقفه من القرآن الكريم، ومدى تفعيله له، وعمله بما فيه.

وثانيها موقفه من الرسالة والرسول والقيم التي جاء بها.

1() الخصال: 103 / 61

2() تحف العقول: 514

3() يعني لا يكتم السر ويذيع ما في باطنه من الأسرار

4() البحار: 78 / 186 / 24

5() مشكاة الأنوار: 63

وثالثها موقفه من الأمة وخدمتها والحفاظ على وحدتها.

وهذه المواقف نفسها يمكن امتحان مدعي الانتساب لأهل السنة فيها.. حتى يميز بين صحيح النسبة للسنة، وبين المدعين، وما أكثرهم..

وعندما نتعامل مع كل من السنة والشيعة على أساس هذا الامتحان، سنرى قصر المسافة بين السنة والشيعة.. بل نرى أن المسافة تختزل لتصبح عدما أو وهما كبيرا استعمله الشيطان ليفرق صف الأمة، ويزرع الشقاق بينها.

أولا: الموقف من القرآن الكريم، ومدى تفعيله، والعمل بما فيه:

يعتقد الشيعة ـ متسننهم ومبتدعهم ـ بأن رسول الله ﷺ أوصى في حديثه المتواتر المنقول في مصادر الفريقين بأمرين خطيرين سماهما لأجل أهميتهما [ثقلين]، فقال: (إني تركت فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي، الثقلين وأحدهما أكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي. ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض) (1)

وفي رواية: (أيها الناس. إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول من ربي فأجيب. وإني تارك فيكم الثقلين. أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به. فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل

(1) رواه أبو داود وغيره، وللأسف فإن هذا الحديث مع وروده بلفظ (كتاب الله وعترتي) ومع كثرة الروايات الواردة فيه بهذا المعنى استبدل بحديث آخر، وصار هو المعروف عند الناس، وهو استبدال (عترتي) بلفظ (سنتي) مع أنه لم يرد في أي من الصحاح الست، وقد أخرج الحديث بهذا اللفظ مالك بن أنس في موطئه ونقله مرسلا غير مسند، وأخذ عنه بعد ذلك البعض كالطبري وابن هشام ونقلوه مرسلا كما ورد عن مالك.. مع العلم أنه في قانون المحدثين لا يروى الحديث إلا بأصح صيغه، هذا في حال كون الصيغة المروية عن مالك صحيحة باعتبار المحدثين لأنها مرسلة، ولكنه للأسف صار الحديث المرسل هو الأصل، وصار الحديث المتواتر في حكم المكتوم، بل لو أن شخصا حدث به لاتهم في دينه.

بيتي)[1]

فهذا الحديث برواياته المختلفة يعتبر القرآن الكريم هو الثقل الأول، بل الثقل الأكبر كما يدل على ذلك ظاهر الحديث، بل نص على ذلك الإمام علي بقوله: (القرآن أفضل الهدايتين) [2]

بل إن المتسنين من الشيعة لا يعتبرون الأئمة من أهل البيت سوى تجل من تجليات القرآن الكريم.. أو يعتبرونهم القرآن الناطق.. أو يعتبرونهم التطبيق النموذجي للقرآن الكريم.

فلذلك لا يقتصرون في تنفيذهم لوصية رسول الله ﷺ على شطرها الثاني، ويتركون الشطر الأول.. فالوصية كائن واحد، والفصل بينهما يؤدي إلى تشويه كليهما..

وانطلاقا من هذا كانت وصية جميع أئمة أهل البيت للأمة عموما، ولشيعتهم خصوصا بالقرآن الكريم، باعتباره شمس الهداية، وبوصلتها الكبرى..

ولهذا نجد في خطب أمير المؤمنين الإمام علي تلك الأوصاف البديعة للقرآن الكريم، ترغيبا في قراءته وتدبره والتعلم منه والحياة على منهجه..

حيث نطالع فيها قوله: (الله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم) [3]

ويقول: (كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله)[4]

---

[1] رواه مسلم

[2] غرر الحكم: 1664.

[3] نهج البلاغة: الكتاب 47.

[4] نهج البلاغة: الخطبة 133

ويقـول: (تعلمـوا كتـاب اللـه تبـارك وتعـالى فإنـه أحسـن الحـديث وأبلـغ الموعظـة، وتفقهـوا فيـه فإنـه ربيـع القلـوب، واستشفوا بنوره فإنه شـفاء لمـا في الصـدور، وأحسـنوا تلاوتـه فإنه أحسن القصص)[1]

ويقول: (اعلموا أنه ليس على أحد بعـد القـرآن من فاقـة، ولا لأحـــد قبـــل القـــرآن من غـــنى، فاستشـــفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم)[2]

ويقول واصفا ما أودع اللـه فيـه من أنـوار الهدايـة: (جعلـه الله ريا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهـاء، ومحـاج لطـرق الصلحاء، ودواء ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمة) [3]

ويقول: (اعلموا أن هذا القرآن هـو الناصـح الـذي لا يغش، والهادي الذي لا يضل، والمحدث الذي لا يكذب، وما جالس هـذا القرآن أحد إلا قام عنـه بزيـادة أو نقصـان، زيـادة في هـدى، أو نقصان من عمى) [4]

ويقول: (إن الله سبحانه لم يعظ أحـدا بمثـل هـذا القـرآن، فإنه حبل الله المـتين وسـببه الأمين، وفيـه ربيـع القلب، وينـابع العلم، وما للقلب جلاء غيره)[5].

ويقول: (فالقرآن آمر زاجر، وصامت ناطق، حجة الله على خلقه، أخذ عليه ميثاقهم، وارتهن عليهم أنفسهم [6]

ويقول: (أفضل الذكر القرآن، به تشرح الصـدور، وتسـتنير

1() تحف العقول: 150

2() نهج البلاغة: الخطبة 176، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 18

3() نهج البلاغة: الخطبة 198، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 199

4() نهج البلاغة: الخطبة 176، نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 18.

5() نهج البلاغة: الخطبة 176، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 31.

6() نهج البلاغة: الخطبة 183، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: 10 / 115.

السرائر [1]

وهو يحذر من هجر الأمة للقرآن وإعراضها عنـه، وتقـديمها لأهوائها عليه، فيقول: (إنه سيأتي عليكم من بعـدي زمـان ليس فيـه شـئ أخفى من الحـق، ولا أظهـر من الباطـل... فالكتـاب وأهله في ذلـك الزمـان في النـاس وليسـا فيهم، ومعهم وليسـا معهم، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعـا، فـاجتمع القـوم على الفرقة، وافترقوا على الجماعة، كأنهم أئمة الكتـاب وليس الكتاب إمامهم، فلم يبق عندهم منـه إلا اسـمه، ولا يعرفـون إلا خطه وزبره)[2]

وهكـذا نجـد الروايـات الكثـيرة عن سـائر الأمـة توصـي بـالقرآن، وتـدعو إلى تفعيلـه في كـل مجـالات الحيـاة، فالإمـام الحسـن يقـول: (إن هـذا القـرآن فيـه مصـابيح النـور وشـفاء الصدور، فليجل جال بضوئه، وليلجم الصـفة، فـإن التلقين حيـاة القلب البصير كما يمشى المستنير في الظلمات بالنور)[3]

والإمـام زين العابـدين يعـبر عن علاقتـه الروحيـة بـالقرآن الكـريم، فيقـول: (لـو مـات من بين المشـرق والمغـرب لمـا استوحشت بعد أن يكون القرآن معي) [4]

والإمام الصادق يعـبر عن ضـرورة اللجـوء للقـرآن الكـريم لتبصر الحقائق، والابتعاد عن سبل الفتن التي حرف بهـا الـدين، فيقول: (من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن)[5]

ويقول ــ لمـا سـئل: مـا بـال القـرآن لا يـزداد على النشـر والـدرس إلا غضاضـة ؟ -: (لأن اللـه تبـارك وتعـالى لم يجعلـه

1() غرر الحكم: 3255.

2() نهج البلاغة: الخطبة 147

3() البحار: 78 / 112 / 6

4() الكافي: 2 / 602 / 13.

5() المحاسن: 1 / 341 / 702.

لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة) (1)

وهكذا يقول الإمام الرضا واصفا القرآن الكريم مرغبا شيعته فيه: (هو حبل الله المتين، وعروته الوثقى، وطريقته المثلى، المؤدي إلى الجنة، والمنجي من النار، لا يخلق على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة، لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجة على كل إنسان، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)(2)

ويقول الإمام الجواد محذرا من نبذ القرآن الكريم أو تحريف معانيه وقيمه: (وكل أمة قد رفع الله عنهم علم الكتاب حين نبذوه وولاهم عدوهم حين تولوه، وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية)(3)

ويقول الإمام الحسن العسكري مبينا قيمة القرآن الكريم ودوره في تحقيق السعادة الأبدية، ومرغبا مواليه فيه: (إنّ القرآن يأتي يومَ القيامة بالرّجل الشّاحبِ يقولُ لربّه: يا ربّ، هذا أظمأتُ نهارَه، وأسهرتُ ليلَه، وقوّيت في رحمتك طمعه، وفسحتُ في رحمتك أمله، فكن عند ظنّي فيك وظنّه. يقول الله تعالى: أُعطوه المُلكَ بيمينه والخُلد بِشماله، واقرِنوه بأزواجه من الحور العين، واكسُوا والديه حلّة لا تقوم لها الدّنيا بما فيها، فينظر إليهما الخلائق فيعظّمونهما، وينظران إلى أنفسهما فيعجبان منهما، فيقولان: يا ربّنا، أنّى لنا هذه ولَم تَبلُغْها أعمالُنا ؟! فيقول الله عزّوجلّ: ومع هذا تاج الكرامة، لم يَرَ مثلَه الرّاؤون ولم يسمع بمثله السّامعون، ولا يتفكَّر في مثله المتفكّرون، فيقال: هذا بتعليمكما ولدَكُما القرآن، وبتبصيركما

1() البحار: 92 / 15 / 8

2() عيون أخبار الرضا : 2 / 130 / 9

3() الكافي: 8 / 53 / 16

إيّاه بدين الإسلام، وبرياضتكما إيّاه على حُبِّ محمّد رسول اللـه وعليّ وليّ الله صلوات الله عليهما، وتفقيهكما إيّاه بفقههما)(1)

بل إن أئمة أهل البيت متفقون على أنه إذا تعارضت أي رواية واردة عنهم أو عن رسول الله ﷺ مع القرآن الكريم، فإن القرآن الكريم يقدم عليها.. فالكتاب هو الحاكم، وهو المرجع عند التنازع.

وبناء على هذا، فقد كان التراث الشيعي في صورته الجميلة ممتلئا بتلك الحرية الفكرية التي تتيح للعالم والمجتهد والمرجع أن يرمي أي رواية أو يردها إذا تناقضت مع ما يدعو إليه القرآن الكريم من المعاني النبيلة والقيم الطاهرة، ولا يجد من زملائه من ينكر عليه رده لحديث رواه الكافي أو غيره.. فالقرآن الكريم فوق الكافي وفوق كل الصحاح.

لكن المتشيع بالتشيع البدعي، لا يهتم لكل تلك الروايات.. بل يعتبر الروايات أصلا، ويجعل من القرآن الكريم فرعا هزيلا، يمكن الاحتيال عليه بكل ألوان الحيلة..

ولذلك كان انحراف هذا اللون من التشيع عن خط أهل البيت بقدر انحرافه عن القرآن الكريم..

بل إن كل ما أصاب هذا اللون من التشيع من أنواع البدع والضلالات كان بسبب الانحراف عن القرآن الكريم، وتقديم الروايات عليه.. حتى أني سمعت من بعض الشيعة المتواجدين في أوروبا من يلقي المحاضرات الكثيرة التي يحاول أن يثبت فيها أن أهل البيت أصل، والقرآن فرع.. وأن القرآن لم ينزل إلا ليثبت لنا حقانية أهل البيت..

ثم يقضي أوقاتا طويلة في محاضراته يحقر فيها القرآن، ليرفع من شأن أهل البيت.. وكأن هناك صراعا بينهما، أو كأنه لا يرفع أهل البيت إلا إذا وضع القرآن.

ومثل هذا، أو لا يقل عنه ذلك الدجل الذي كتبه بعض

---

(1) مستدرك الوسائل : ج1 / ص290.

محدثيهم حين راح يجمع الروايات في بيان تحريف القرآن .. واستقبله أمثال أولئك المتواجدين في أوروبا من الذين استعملهم الشيطان لتحريف تلك الوصايا المقدسة من أئمة أهل البيت.. واستقبله كذلك أولئك المغرضين الحاقدين من الذين يسمون أنفسهم زورا وبهتانا [أهل السنة]، فراحوا ـ من غير تحقيق ـ يرمون الشيعة جميعا بهذه التهمة الباطلة من غير تفريق بين من يسير منهم على خطى أهل البيت، أو من انحرف عنهم.

وعلى خلافهم أصحاب التشيع السني الذين انبروا بقوة في وجه تلك الدعاوى، وكتبوا الكتب الكثيرة في إثبات عدم تحريف القرآن.. وأن التحريف الذي أصابه هو تحريف المعنى لا تحريف اللفظ.. وهو تحريف مارسته الأمة جميعا بفرقها المختلفة.

وعلى خلافهم أيضا أولئك العلماء الأجلاء الذين تركوا ثروة ضخمة من التفاسير والدراسات القرآنية التي كانت ثمرة التدبر الواعي، أو ثمرة المزج بين الثقلين جميعا، من أمثال ناصر مكارم الشيرازي وجعفر السبحاني وتقي المدرسي ومحمد حسين فضل الله وباقر الصدر وجوادي آملي، وغيرهم كثير ممن أثروا المكتبة الإسلامية بالدراسات الكثيرة المستلهمة من القرآن الكريم.

هذا هو الفارق الأول بين هاتين المدرستين الكبيرتين في الشيعة: المدرسة الأصولية العلمية العقلانية التي تعتبر الوصية بالقرآن الكريم مقدمة على الوصية بأهل البيت.. وتعتبر أهل البيت مثالا تطبيقيا للقرآن الكريم، ويستحيل حصول النزاع بينهما.. والمدرسة الإخبارية التي استهوتها الروايات والآثار كما استهوت إخوانها من سلفية أهل السنة.. فضلت بالحديث والآثار عن القرآن وحقائق القرآن..

ثانيا: الموقف من الرسالة والقيم التي جاءت بها:

كما يعتقد أصحاب التشيع السني بأن أئمة أهـل الـبيت هم القــرآن النــاطق، وأنهم تمثلــوا القيم القرآنيــة، ودعــوا إليهــا، وعاشوا في سبيلها، فهم يرون كذلك أنهم امتـداد لرسـول اللـه ﷺ ، وليس كيانا مستقلا ولا موازيا، فدعوتهم هي دعوته، والقيم التي نادوا بهـا هي نفس القيم الـتي دعـا إليهـا رسـول اللـه ﷺ، لأنهم ورثوا كل ما عندهم من رسول الله ﷺ..

ولهذا نراهم يحذرون من أن يقدموا على رسول الله ﷺ أو يبالغ في شأنهم بـأكثر من وصـفهم ورثتـه وخلفـاءه وأوصـياءه، وقـد سـئل إمـام الأئمـة الإمـام علي بن أبي طـالب من بعض الأحبار ـ بعد أن سمع كلامه العجب ـ: (يا أمير المؤمـنين أفنـبي أنت؟)، فقال له الإمام علي: (ويلك، إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ)(1)

وهكذا يقال في سائر الأئمة، بـل إن رسـول اللـه ﷺ أشـار إلى ذلك إشارة صريحة عندما قال عن الإمام الحسين: (حسين مني، وأنا من حسين)(2)

فهـذا الحـديث يشـير إلى التواصـل والامتـداد بين الإمامـة والرسـالة.. فالإمامـة فيض من فيوضـات الرسـالة، ومنبـع من منابعها، وتجل من تجلياتها، وليست كيانا خاصا مستقلا.

ولهـذا ورد في النصـوص الكثـيرة الجمـع في الصـلاة بين رسول الله ﷺ وآله الطيبين الطاهرين.. لأنهم فرع ممتد يحفـظ به الدين، وتحفظ به قيمه.

هذا هو مفهوم الإمامة عند أصحاب التشيع السني، ولهذا لا يرون في كونهـا سـفينة نجـاة أو حبلـه الممتـد من السـماء إلى الأرض ما يراه أصحاب الأمـاني الواسـعة، من أن مجـرد الـولاء لهم كاف في ركوب السفينة، وفي القبض على الحبـل.. فـذلك غير صحيح.. فالولاء لهم يقتضي اتباعهم، واتباع القيم الروحانية والأخلاقية النبيلة التي دعوا إليها.

1() التوحيد: 174 / 3.

2() رواه الترمذي (3775) وابن ماجه (144) وأحمد (17111)

بل إن المتحقق بتلك القيم التي نادوا بها قريب منهم، حتى لو لم يعد في مواليهم.. وغير المتحقق بتلك القيم بعيد عنهم، ولو عد نفسه مواليا وشيعيا، وافتخر بذلك.

ولهذا فإن ما نراه من بعض الشيعة المبتدعة من الكلام في كبار العلماء، واعتبارهم من النواصب بحجة كونهم لم ينتسبوا لأهل البيت كلام جريء وخطير جدا، ومشوه لمنهج أهل البيت.. وقد سمعت بعضهم، وهو في أوروبا يتحدث ببذاءة عن أبي حامد الغزالي، معتبرا إياه من النواصب، ناسيا كل تلك الجهود التي بذلها في الدعوة إلى نفس القيم التي نادى إليها أهل البيت.

وهذا الشخص نفسه ممتلئ ببغض إخوانه من الشيعة أنفسهم، بل يعتبرهم أيضا نواصب، لأنهم لم يلعنوا فلانا، أو لم يسبوا فلانة.

وهذا هو نفسه الفكر السلفي العدواني الذي لا يهتم بشيء كما يهتم بتصنيف الناس، ليصب عليهم بعد ذلك أحقاد قلبه، وأمراض نفسه.

ولذلك يصرح أئمة أهل البيت في نصوص كثيرة جدا، أن شيعتهم ومواليهم هم أصحاب القيم الروحية والأخلاقية العالية، وأن مجرد دعوى الانتساب إليهم غير كافية، بل هي كذب عليهم، وتشويه لهم.

ولعل أبرز النصوص وأشهرها في الدلالة على صفات الموالين لآل بيت النبوة ما ذكره الإمام علي في خطبة المتقين الطويلة، وهي تبين نوع القيم التي كان الإمام علي يدعو إليها أصحابه ومواليه، فمن صفات أولئك الموالين المتقين: (منطقهم الصواب، وملبسهم الإقتصاد، ومشيهم التواضع. غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم.. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها، فهم فيها معذبون. قلوبهم محزونة،

وشـــرورهم مأمونـــة، وأجســـادهم نحيفـــة، وحاجـــاتهم خفيفـــة، وأنفسهم عفيفة)(1)

إلى آخــر الخطبــة الــتي تمثــل الشخصــية الإســلامية في صورتها الجميلة، والتي دعا إليها القرآن الكريم، ومثلها النبي ﷺ أحسن تمثيل، وكان دور الأئمـة بحسـب مـا تـدل عليـه أفعـالهم وأقــوالهم هي تمثيلهـا في الواقـع ليراهـا النـاس أمـامهم حيـة متحركة.

بل إن كل الأئمة يصرحون بـأن شـيعتهم هم أصـحاب تلـك القيم، لا المتاجرون بهم، أو المتزينون بالانتساب إليهم.

وقد قـال الإمـام علي في وصـف مواليـه: (شـيعتي واللـه، الحلماء، العلماء بالله ودينه، العاملون بطاعته وأمره، المهتـدون بحبه، أنضـاء عبـادة، أحلاس زهـادة، صـفر الوجـوه من التهجـد، عمش العيون من البكاء، ذبل الشفاه من الذكر، خمص البطون من الطوى، تعرف الربانية في وجوههم، والرهبانية في سمتهم، مصابيح كل ظلمة.. إن شهدوا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، اولئك شيعتي الأطيبون وإخواني الأكرمون، ألاهـاه شـوقا إليهم)(2)

وقال: (شيعتنا المتباذلون في ولايتنا، المتحابون في مودتنا المتزاورون في إحياء أمرنـا، الـذين إن غضـبوا لم يظلمـوا، وإن رضوا لم يسرفوا، بركة على من جاوروا، سلم لمن خالطوا)(3)

وقال: (شيعتنا هم العارفون بالله، العاملون بأمر الله، أهل الفضــائل، النــاطقون بالصــواب، مــأكولهم القــوت، وملبســهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع.. تحسبهم مرضى وقد خولطـوا ومـا هم بــذلك، بــل خــامرهم من عظمــة ربهم وشــدة ســلطانه مــا طاشت له قلوبهم، وذهلت منه عقولهم، فإذا اشـتاقوا من ذلـك

1() نهج البلاغة: الخطبة 193.

2() أمالي الطوسي: 576 / 1189

3() الكافي: 2 / 236 / 24

بادروا إلى الله تعالى بالأعمال الزكية، لا يرضون له بالقليل، ولا يستكثرون له الجزيل.. كانوا خيار من كانوا منهم، إن كان فقيه كان منهم، وإن كان مؤذن فهو منهم، وإن كان إمام كـان منهم، وإن كان صاحب أمانة كان منهم، وإن كان صـاحب وديعـة كـان منهم، وكذلك [كونوا] احبونا إلى الناس ولا تبغضونا إليهم) (1)

وقال لتلميـذه النجيب نـوف البكـالي: أتـدري يـا نـوف من شيعتي؟ قال: لا والله، قـال: (شـيعتي الـذبل الشـفاه، الخمص البطون، الذين تعرف الرهبانية في وجوههم، رهبان بالليل أسـد بالنهار)(2)

ومثله قال الإمام الحسن - في جواب رجـل قـال لـه: إني من شيعتكم -: (يا عبـد اللـه إن كنت لنـا في أوامرنـا وزواجرنـا مطيعا فقـد صـدقت، وإن كنت بخلاف ذلـك فلا تـزد في ذنوبـك بدعواك مرتبة شريفة لست من أهلها، لا تقل: أنا من شـيعتكم، ولكن قل: أنا من مواليكم ومحبيكم ومعادي أعدائكم، وأنت في خير وإلى خير)(3)

ومثلـه قـال الإمـام البـاقر - في صـفة الشـيعة -: (إنهم حصون حصينة، في صدور أمينة، وأحلام رزينة، ليسوا بالمـذاييع البذر، ولا بالجفاة المرائين، رهبان بالليل أسد بالنهار)(4)

وقـال: (مـا شـيعتنا إلا من اتقى اللـه وأطاعـه، ومـا كـانوا يعرفون إلا بالتواضع والتخشع وأداء الأمانة وكثرة ذكر الله)(5)

وقال محذرا: (لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ما شـيعتنا إلا

1() البحار: 78 / 29 / 96

2() البحار: 78 / 28 / 95

3() تنبيه الخواطر: 2 / 106

4() مشكاة الأنوار: 62

5() تحف العقول: 295

من أطاع الله عزوجل)(1)

وقال لبعض أصحابه لما ذكر عنده كثرة الشيعة، وهو فـرح لذلك: هـل يعطـف الغـني على الفقـير؟ ويتجـاوز المحسـن عن المسـئ؟ ويتواسـون ؟ قـال: لا، قـال : ليس هـؤلاء الشـيعة، الشيعة من يفعل هكذا(2).

وقال محذرا من الغلو والغلاة: يا معشر الشيعة - شيعة آل محمد - كونوا النمرقـة الوسـطى، يرجـع إليكم الغـالي، ويلحـق بكم التالي، فقال له رجل من الأنصار: جعلت فداك ما الغالي ؟ قال: قوم يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس اولئـك منـا ولسنا منهم، قال: فما التالي، قـال: المرتـاد يريـد الخـير، يبلغـه الخير يوجر عليه(3).

أما الإمام الصادق، فقد وردت عنه الروايات الكثـيرة الـتي تحذر من الانتساب الفارغ من المحتـوى، ومنهـا قولـه: (شـيعتنا أهـل الـورع والاجتهـاد، وأهـل الوفـاء والأمانـة، وأهـل الزهـد والعبـادة، أصـحاب إحـدى وخمسـين ركعـة في اليـوم والليلـة، القائمون بالليل، الصائمون بالنهـار، يزكـون أمـوالهم، ويحجـون البيت، ويجتنبون كل محرم)(4)

وقال: (شيعتنا من قدم ما استحسن، وأمسك مـا اسـتقبح، وأظهر الجميل، وسارع بالأمر الجليل، رغبة إلى رحمـة الجليـل، فذاك منا وإلينا ومعنا حيثما كنا) (5)

وقال: (شيعتنا هم الشاحبون الذابلون الناحلون، الـذين إذا

1() الكافي: 2 / 73 / 1

2() البحار: 74 / 313 / 69

3() الكافي: 2 / 75 / 6

4() البحار: 68 / 167 / 23 وص 169 / 29

5() البحار: 68 / 167 / 23 وص 169 / 29

جنهم الليل استقبلوه بحزن) (1)

وقـال: (إنمـا شـيعة علي من عـف بطنـه وفرجـه، واشـتد جهاده، وعمـل لخالقـه، ورجـا ثوابـه، وخـاف عقابـه، فـإذا رأيت أولئك فاولئك شيعة جعفر) (2)

وقال: (امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها عنـد عـدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها)(3)

وقال: (إنما شيعتنا يعرفون بخصال شتى: بالسخاء والبـذل للإخوان، وبأن يصلوا الخمسين ليلا ونهارا) (4)

وقـال: (ليس من شـيعتنا من يكـون في مصـر يكـون فيـه آلاف ويكون في المصر أورع منه) (5)

وقال: (قوم يزعمون أني إمامهم، والله مـا أنـا لهم بإمـام، لعنهم الله، كلما سترت سترا هتكوه، أقول: كذا وكذا، فيقولون: إنما يعني كذا وكذا، إنما أنا إمام من أطاعني) (6)

وقال: (إن أصـحابي أولـوا النهى والتقى، فمن لم يكن من أهل النهى والتقى فليس من أصحابي) (7)

وقـال:(ليس من شـيعتنا من قـال بلسـانه وخالفنـا في

1() الكافي: 2 / 233 / 7

2() الكافي: 2 / 233 / 7 وح 9

3() الخصال: 103 / 62

4() تحف العقول: 303

5() البحار: 68 / 164 / 13 و 2 / 80 / 76.

6() البحار: 68 / 164 / 13 و 2 / 80 / 76

7() البحار: 68 / 166

أعمالنا وآثارنا)[1]

وقال:(يا شيعة آل محمد ! إنه ليس منا من لم يملك نفسه عند الغضب، ولم يحسن صحبة من صحبه، ومرافقة من رافقه، ومصالحة من صالحه، ومخالفة من خالفه)[2]

وقال:(يا معشر الشيعة إنكم قد نسبتم إلينا، كونوا لنا زينا، ولا تكونوا علينا شينا)[3]

وقال:(رحم الله عبـدا حببنـا إلى النـاس، ولا يبغضـنا إليهم، وأيم الله لو يرون محاسن كلامنا لكانوا أعز، ومـا اسـتطاع أحـد أن يتعلق عليهم بشئ)[4]

وقال:(رحم الله عبدا حببنـا إلى النـاس ولم يبغضـنا إليهم، أما والله لو يرون محاسن كلامنا لكـانوا بـه أعـز، ومـا اسـتطاع أحد أن يتعلق عليهم بشئ، ولكن أحدهم يسـمع الكلمـة فيحـط إليها عشرا)[5]

ومثله قال الإمام الكاظم - لموسى بن بكـر الواسـطي -: (لـو مـيزت شـيعتي لم أجـدهم إلا واصـفة، ولـو امتحنتهم لمـا وجدتهم إلا مرتدين، ولو تمحصتهم لمـا خلص من الألـف واحـد، ولو غربلتهم غربلة لم يبـق منهم إلا مـا كـان لي، إنهم طـال مـا اتكوا على الأرائك فقالوا: نحن شيعة علي، إنما شـيعة علي من صدق قوله فعله)[6]

1() البحار: 68 / 164 / 13

2() تحف العقول: 380

3() مشكاة الأنوار: 67، 180

4() مشكاة الأنوار: 67، 180

5() الكافي: 8 / 229 / 293

6() الكافي: 8 / 228 / 290

وقال:(ليس من شيعتنا من خلا ثم لم يرع قلبه) (7)

وهكذا نجد كل الأئمة ينصون على أن الولاء لهم هو ولاء بالدرجة الأولى للقيم النبيلة التي دعوا إليها، وليس مجرد نسبة فارغة من المحتوى.

وبناء على هذا فإن الشيعي المتسنن هو الذي يسرع إلى نفسه يحاسبها على وفق تلك المعايير التي وضعها الأئمة الذين يدعي انتسابه إليهم، وليس ذلك المدعي الذي يفتش في بطون الكتب عن أي كلمة قالها فلان من الناس، ليرميه بالنصب، ويرميه بعدها بالنفاق، ويتمتع بذلك.

ولهذا نجد هذا الصنف من الشيعة يرمون كل دعاة الوحدة الإسلامية من أصحاب الدين القويم القيمي بالنصب وغيره، ويمكن لكل من شاء أن يتأكد من ذلك أن يبحث عن مواقف هذا النوع من الشيعة من الشيخ محمد حسين فضل الله أو القمي أو التسخيري أو الخميني أو غيرهم من الدعاة إلى القيم النبيلة التي دعا إليها أهل البيت، وضحوا في سبيلها بكل شيء.

ولهذا فإن أصدق ما ينطبق على هؤلاء هو أنهم تحولوا إلى عبء ثقيل على كواهل أئمة أهل البيت.. فبدل أن يحملوا منهجهم، ويعرضوه بصورته الجميلة النقية، عرضوه بصورة مشوهة، نفرت منه المخالفين، وفرقت به الموالين.

ثالثا: الموقف من الأمة وخدمتها والحفاظ على وحدتها:

الامتحان الثالث الذي يميز بين المحافظ على المنهج الصحيح لأئمة أهل البيت، والمنحرف عنهم هو أخطر الامتحانات وأهمها، وهو الموقف من الأمة سواء في الحفاظ على وحدتها بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، أو بخدمتها والسعي في النهوض بها وتطويرها في جميع المجالات.

وقد تجلى هذا الموقف واضحا جليا في كل الأئمة مهما

7() بصائر الدرجات: 247 / 10

اختلفت تعبـيراتهم عنـه، لاختلاف الظـروف الـتي عاشـوها، والابتلاءات التي مروا بها.

فالإمـام علي مثلا ـ كمـا تنص على ذلـك جميـع مصـادر الشيعة ـ لم يخرق صف الوحدة الإسلامية، ولم يستجب لأولئـك المحرضين الذين استغلوا الوضع القائم بعـد وفـاة رسـول اللـه ﷺ، ليحـدثوا من خلالـه فتنـة في الأمـة لم يطيقـوا إحـداثها في حياته، وقد ورد في المصادر المعتـبرة للفـريقين أن أبـا سـفيان جاء إلى الإمام علي، وهو يصيح: (إني لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الـدم، يـا آل عبـد منـاف فيم أبـو بكـر من أمـوركم؟ أين المستضعفان ؟ أين الأذلان علي والعباس؟ ما بال هذا الأمر في أقـل حي من قـريش؟) ثم قـال لعلي: (ابسـط يـدك أبايعـك، فوالله لئن شئت لأملأنهـا عليـه خيلا ورجلا فزجـره علي وقـال : (واللـه إنـك مـا أردت بهـذا إلا الفتنـة وإنـك واللـه طالمـا بغيت للإسلام شرا لا حاجة لنا في نصيحتك)[1]

بل نراه ينص على ذلـك بصـراحة في بعض خطبـه في نهج البلاغة، ففيها: (والله لأسلمن مـا سـلمت أمـور المسـلمين ولم يكن فيها جور إلا علي خاصة التماسا لأجـر ذلـك وفضـله وزهـدا فيما تنافستموه من زخرفه وزبرجه)[2]

ولم يكتف الإمـام علي ـ بحسـب مـا تنص عليـه المصـادر الشيعية المعتبرة ـ بالبيعة الـتي تحفـظ وحـدة الأمـة فقـط، بـل ضم إليها العمل الإيجابي لخدمة الأمة في جميع المجالات، وقـد قال معـبرا عن ذلـك: (فمـا راعـني إلا انثيـال النـاس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قـد رجعت عن الإسلام، يـدعون إلى محـق دين محمـد ، فخشـيت إن لم أنصـر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلما أو هدما، تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم)[3]

1() الكامل في التاريخ، ج2، ص10.

2() نهج البلاغة: خطبة رقم 73.

3() نهج البلاغة: كتاب رقم 62.

وكان الإمام علي يتعامل في ذلك الوضع بكـل مـا تقتضـيه النصـيحة من أعمـال، فكـان مـع الخلفـاء ومـع الأمـة، يحضـر المسجد، ويشارك في صلاة الجماعة، ويستشـار، فيعطي رأيـه، ويساعد الخلفاء في مواقف كثيرة.

بـل ورد في الروايـات الكثـيرة أنـه استشـير في أكـثر من تسعين مسألة من المسائل العسكرية والاقتصـادية والسياسـية والدينية من طرف الخلفـاء من بعـده، وخاصـة الخليفـة الثـاني، فأشار فيها الإمام علي، وقبل الخليفة رأيه، ونفذه[1].

ولو لم يأنس الخلفاء منه النصيحة والإخلاص والصـدق لمـا استشاروه، وذلك خلافا لما يذهب إليه دعاة التشيع البـدعي من أنه مارس كل ذلك تقية، ولم يمارسه صادقا ولا مخلصا.. ومعاذ الله أن يقضي الإمام علي ذلك الشطر المحترم من عمره، وهو يضمر خلاف ما يظهر.

وهكذا كان موقفه حينما طلب منه العباس أن لا يدخل في الشورى التي عيّنها عمر فقال: (إني أكره الخلاف)[2]

بل إن الإمـام علي كـان من السـعاة إلى درء الفتنـة الـتي حصلت بين الخليفة الثالث والمعارضين له، حيث أصبح وسـيطاً بين الطرفين لإخماد الفتنة، ونصح المعارضين بعدم قطع المـاء عنه في وقت الحصار، فلم يستجيبوا له، فبعث إليـه ثلاث قـرب مملوءة بالماء[3].

وبعث عثمان إليه فأتـاه، فتعلّـق بـه المعارضـون ومنعـوه، فحـلّ عمامـة سـوداء على رأسـه ورماهـا داخـل الـبيت ليعلمـه وقـال: (اللهمّ لا أرضـى قتلـه، واللـه لا أرضـى قتلـه)، وأرسـل الحسن والحسـين للـدفاع عن عثمـان، فمنعـوا المعارضـين من الـدخول إلى منزلـه، وقـد أصـابت الحسـن عـدّة جراحـات في

1() انظر التفاصيل المرتبطة بذلك في كتاب: [علي والخلفاء] لنجم الدين العسكري.

2() الكامل في التاريخ 3: 66.

3() حسين الديار بكري، تاريخ الخميس 2: 262.

الدفاع عنه (1).

هكذا ظـل الإمـام علي إلى آخـر لحظـة من حياتـه حريصـا على الأمة، وصلاحها ووحدتها، وقد قال في وصيته بعـد أن قتلـه الشقي ابن ملجم: (يـا بـني عبـد المطلب، لا ألفينكم تخوضـون دماء المسلمين خوضا تقولون: قتل أمير المؤمـنين، ألا لا تقتلن بي إلا قـاتلي، انظـروا إذا أنـا مت من ضـربته هـذه، فاضـربوه ضربة بضربة ولا تمثلوا بالرجل)(2)

وهكذا كان أصحابه ومواليه الذين يمجدهم جميـع الشـيعة، ويحترمونهم، فقد شاركوا في غزو الروم والفرس الـذين كـانوا يهددون الحدود الإسلامية، فقد شارك أبناء العباس وأبناء إخوانه كمحمد بن جعفر الذي استشـهد في تسـتر، واشـترك عمّـار بن ياسر وسلمان وحذيفة بن اليمان وجابر بن عبـد اللـه في أغلب تلك الغزوات(3).

وهكذا كان الإمام الثاني الإمام الحسن الـذي آثـر أن يقبـل بالصلح المجحف في سـبيل وحـدة المسـلمين واجتمـاع كلمتهم مـع علمـه بتغيـير الطلقـاء وتحـريفهم لقيم الـدين، ولكن حفـظ الوحدة عنده كان أهم من كل شيء.

وهكذا فعل أخـوه الإمـام الحسـين الـذي لم يتحـرك بتلـك الحركة السلمية إلا بعد أن رأى أن الأمة تنحرف انحرافـا كبـيرا، فسار بأهل بيتـه وبقلـة من أصـحابه ليحـيي في الأمـة مـا مـات منها، وقد قال في وصـيته قبـل خروجـه من المدينـة معـبرا عن هدف تلك الحركة العظيمة التي لا نزال نعيش آثارها المباركـة: (إني لم أخــرج أشــرا ولا بطــرا ولا مفســدا ولا ظالمــا، وإنمــا خرجت لطلب الإصلاح في أمـة جـدي رسـول اللـه ﷺ، أريـد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر وأسير بسيرة جدي وأبي علي

1() محمد بن سعد، الطبقات الكبرى 3: 68.

2() ابن خلكان، وفيات الأعيان 2: 70.

3() الكامل في التاريخ 2: 512، 550 و3: 9.

بن أبي طالب)[1]

وهـذه كلمـة عظيمـة لهـا دلالتهـا المهمـة في الوحـدة الإسلامية، فهو لم يخرج لأجل طائفة، ولا ليؤسس مذهبا، وإنمـا خـرج ليعيـد لهـذه الأمـة القيم النبيلـة الـتي تلاعب بهـا الطلقـاء وأبناء الطلقاء.

وقد كان يعلم أنه سيستشهد مع الكثير من أهل بيتـه، كمـا أخبر بذلك رسول اللـه ﷺ، ولكنـه كـان يعلم أن دمـه لن يـذهب هدرا، بل سيبقى المؤمنون الذين يقتدون به في التضـحية بكـل شيء من أجل عودة الدين إلى أصالته.

وهكذا راح كل إمام يمارس في عصـره مـا يقتضـيه واجب وقته، لتكون كل تلك المواقف دروسـا وعـبرا يمكن العمـل بهـا وتفعيلها في المواقع المختلفة.

ولعل هذا هو السـر في كـون الخلفـاء اثـني عشـر.. حـتى تتعدد مواضع القدوة، وتعالج كل ما يرتبط بالحياة من ظروف.

انطلاقا من هذا، فإن المتشيع تشيعا سنيا لا ينظر إلى قوة طائفته بقدر ما ينظر إلى قوة الأمة.. فالأمة عنده هي الأصـل.. والطائفة ظرف طـارئ أملتـه الظـروف الـتي منعت الأئمـة من أداء أدوارهم كاملة..

أو أن الطائفة هي مجرد تجمع أو جماعة تفكر كيف تحـيي الأمة، وكيف تعيد لها الإسلام الأصيل الممتلئ بالقيم الرفيعة..

ولهذا فإن المتشيع بهذا النوع من التشيع يقبل أن يشـاركه في العمل لتحقيق هذا الغرض من كان معه في عقائده أو كـان يختلف معه في بعض فروعها.. لأن الهـدف هـو إحيـاء الـدين، لا إحياء الطائفة.

أما المتشيع تشيعا بدعيا، فهو ينظر إلى الأمة نظرة احتقار وازدراء وكـبر.. فهـو يفـرح لمصـائبها، ويتمـنى من قلبـه لـو أن زلزالا عنيفا عصف بها، ليرتاح منها.

[1]() بحار الأنوار 44: 329.

بل قد سمعت بعضهم يصف الثورة الإسلامية الإيرانية بأنها انحراف عن منهج أهل البيت، لأن تصـوره الأسـطوري للمهـدي جعله يعتقد أن الأمـة لابـد أن تغـرق، وتمتلئ جـورا حـتى يظهـر المهدي لينقذها أو ليعاقبها.

ولهـذا اصـطف في حـرب تلـك الثـورة كلا الصـنفين من السـلفية: السـلفية السـنية الـتي اعتبرتهـا ثـورة مجوسـية، والسلفية الشيعية التي بدعتها وضـللتها وكفرتهـا.. بـل إن بعض قادة تلك الثورة كالشيخ مطهري قتل بأيد سلفية شيعية.

وسبب كل تلك المواقف السلبية هو أنهم سمعوا قائد تلك الثورة الإمام الخميني يدعو إلى الوحدة الإسـلامية، وإلى تجـاوز الخلافات المذهبية لإعادة إحياء الأمة، وإعادة الحاكمية للإسـلام المحمدي الأصيل.

وقد سمعت بعض هؤلاء المتشيعة تشـيعا بـدعيا يقـرأ نصـا للخميني حول الخلفاء الأوائل، ثم يرميه بالنصـب بسـبب ذلـك.. والنص هو قول الخميني: (لنلاحظ كيف هي معيشة الذين كـانوا يـدعون إلى الإسـلام؟ مثلاً: نفس النـبي الأكـرم وبعـده الخلفـاء الأوائـل ــ الـذين كـانوا على نحـو آخـر ــ، ثم الإمـام عليّ أمـير المؤمنين، فهل كانت حياتهم تشبه حياة ملالي البلاط) (1)

ويستشهد في خطاب آخر بسيرة الخليفـة الثـاني عمـر بن الخطـاب، حيث يقـول: (عنـدما وصـل الخليفـة الثـاني في أحـد أسفاره قريباً من أحد البلدان الـتي كـانت تحت سـلطته إذ ذاك كان الدور لغلام الخليفة أن يركب والخليفة يمشي راجلاً، ويأخذ اللجام بيده، وعنـدما وردا المدينـة ــ كمـا نقـل ــ كانـا في تلـك الحالة، فالخليفـة يمشـي والغلام راكب على البعـير، إذا وجـدت مثل هذه الحكومة، فلا مجال لهـذه الأقـوال؛ لأنـه في ظلّهـا لم تبق أنانية للإنسان)(2)

وعلى خلاف المتشـيعة تشـيعا مبتـدعا نجـد وقـوف علمـاء

1() الكوثر 2: 399، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، طهران، 1996..

2() الكوثر 2: 399.

الشيعة في العراق إلى جنب الدولة العثمانيـة في صـراعها مـع الاستعمار، وتحريم المرجع السيد محسن الحكيم لقتال الأكـراد في العـراق، ومطالبتـه جمـال عبـد الناصـر بـالإفراج عن سـيد قطب (1) ..

ومن أبرز الشواهد القريبـة لـذلك موقـف الإمـام الخميـني من القضـية الفلسـطينية بعـد أن مـال الكثـير من العـرب إلى الصلح مع الكيان الصهيوني، وتوقيـع اتفاقيـات صـلح معـه.. في ذلك الحين كان الإمام الخميني يصيح في المسلمين: (لو اجتمع المسلمون وألقى كل واحد منهم دلـواً من المـاء على إسـرائيل لجرفها السيل)(2)

وقد كان ليوم القدس العالمي الـذي دعـا إلى إحيائـه دورا كبيرا في إحياء القضية الفلسطينية وجميع قضايا المستضعفين، يقول معبرا عن ذلك: (إن يوم القدس، يوم يجب أن تلتفت فيـه كل الشعوب المسلمة إلى بعضـها، وأن يجهـدوا في إحيـاء هـذا اليـوم فلـو انطلقت الضـجة من كـل الشـعوب الاسـلامية في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك الذي هو يوم القـدس لو نهضت كل الشـعوب وقـامت بنفس هـذا التظـاهرات ونفس هذه المسيرات، فإن هـذا الامـر سـيكون مقدمـة إن شـاء اللـه للوقوف بوجه هؤلاء المفسدين والقضاء عليهم في جميع أرجـاء بلاد الإسلام)(3)

ولم يكن هذا مجرد مقولات أو شعارات، بل تحقـق كواقـع عملي من أول اليـوم الـذي أغلقت فيـه السـفارة الإسـرائيلية، وفتحت فيه السـفارة الفلسـطينية، كعلامـة على انتهـاء التبعيـة للاستكبار، وابتداء عصر مناصرة المستضعفين.

1() انظر مقالا رائعا في هذا بعنوان: [أهل البيت وفقهاء المذاهب الإسلامية وجه مشرق لعلاقة تعاون وتقارب] للسيد سعيد كاظم العذاري.

2() هذه المقولات منقولة من كتاب: القدس في فكر الإمام الخميني قدس سره، مركز الإمام الخميني الثقافي، شبكة المعارف الإسلامية، تشرين الأول 2007م- 1428هــ، ص 26..

3() المرجع السابق، ص42.

ومنذ ذلك اليوم، تغير واقع القضية الفلسطينية تماما، حيث دعمت إيران قوى المقاومة القائمة، وأسست بتوجيهات الإمام قوى مقاومة جديد، لا زال الله يمدها بعونه إلى أن تحولت إلى قوى إقليمية محترمة يحسب لها الاستكبار العالمي ألف حساب.

وغيرها من المواقف الشريفة التي تتماشى تماما مع الخط الرسالي لأئمة أهل البيت في الحفاظ على وحدة الأمة، والسعي لخدمتها في جميع المجالات.

ولهذا فإن كل سلفية الشيعة الذين يوجهون سهام نقدهم لأمثال هؤلاء الوحدويين هم أول من سيقف في وجه من ينتظرونه كما وردت بذلك الروايات [1] ..

لأن الذي ظل عمره محاربا لوحدة الأمة، مستكبرا عليها، يستحيل أن يرى بقلبه الممتلئ بالسواد جمال الحقيقة، ونور العدالة..

1() منها قول الإمام الباقر : (لو قد قام قائمنا بدأ بالذين ينتحلون حبنا فيضرب رقابهم) [الايضاح فضل بن شاذان ص208/209]

خففوا من غلوكم.. فكلكم شيعة

قد يكون هذا العنوان غريبا عند الكثير من الناس، فكيف يكون الكل شيعة.. والشيعة التي نعرفها ليست سوى أولئك الرافضة الطائفيون الحاقدون المجوس الذين استبدلوا اتباع رسول الله ﷺ باتباع أئمتهم الذين زعموا لهم العصمة.. فهم لذلك يتعصبون لهم، ويبالغون في مودتهم، ويجعلون من حياتهم كلها دعاية لهم؟

وقبل أن أجيب على هذا الإشكال الذي قد يطرحه الكثير؛ أحب أن أحكي قصة واقعية حصلت في بعض المناطق، حيث قام بعض أفراد جمعية لمسجد جديد باقتراح اسم [الإمام الحسين] كاسم للمسجد، وهنا قام أفراد آخرون بغضب في وجه هذا الاقتراح، بدعوى أنه اسم طائفي، وأنه صار علما للشيعة، وأننا بتسميتنا للمسجد بهذا الاسم نكون قد وفرنا للشيعة امتدادا جديدا، وأعطيناهم فرصة للظهور والانتشار والغزو..

وفي الأخير.. وبعد مداولات طويلة قررت جمعية المسجد بإجماع أن تسمي المسجد باسم [شيخ الإسلام ابن تيمية]، وقرروا مع هذا القرار عزل صاحب الاقتراح الأول من الجمعية بدعوى أن فيه ميولا شيعية..

هذه القصة تتكرر كل يوم، وبأساليب مختلفة، حتى أن اسم الحسين أو غيره من آل البيت صار اسما للبدعة والرفض وكل ما يحملانه ـ في عقول أصحاب التهمة ـ من انحرافات في الدين والدنيا.

أما اسم ابن تيمية وابن العثيمين وابن خزيمة وابن حنبل وابن بطة.. فقد صارت أسماء سنية سلفية مباركة، يتسابق الناس عليها لينالوا بفضلها بركات التسنن، ويتقوا نقمات التشيع.

وليس ببعيد علينا ذلك الحشد الهائل من السباب الذي

يكـال لمن اختـاروا لأنفسـهم أن يتسـموا بكتـائب أبي الفضـل العباس، أو الزينبـيين، أو الفـاطميين.. بينمـا يكـال أضـعافه من المـديح والثنـاء على من تسـموا بأحفـاد يزيـد، أو نـور الـدين الزنكي، أو السلطان مراد.

وهذا كله وغيره يدل على مـا ذكرنـا من أن الكـل شـيعة.. وهم لا يختلفون فقط إلا في الأئمة الذين يشايعونهم.

وهذه حقيقة سنكتشفها بسهولة عندما نـزيح الغشـاوة عن عقولنـا، ونـزيح معهـا أغلال التقليـد الـتي تقيـدنا، ونـرى الأمـور بشكلها الصحيح.. حينها لن نـرى في الواقـع الإسـلامي جميعـا.. بل في واقع الأديـان جميعـا سـوى شـيعة يحقـر بعضـهم بعضـا، ويؤذي بعضهم بعضا، ويستكبر بعضهم على بعضهم تحت رايـات الأئمة المعصومين الذين يشايعونهم.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة، فقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَـــادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَـــذَابًا مِنْ فَـــوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَـأْسَ بَعْضٍ انْظُـرْ كَيْـفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: 65]

فهذه الآية الكريمة تبين أن الأمة حين تفتقد البوصلة الـتي تهديها إلى قبلة الحقيقة، سوف تتحـول إلى شـيع يـذيق بعضـها بأس بعض، ويلعن بعضها بعضا، ويستكبر بعضها على بعض.

ومثل ذلك وأخطر منه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَـانُوا شِـيَعًا لَسْـتَ مِنْهُمْ فِي شَـيْءٍ إِنَّمَـا أَمْـرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: 159]، فقوله تعـالى مخاطبـا رسوله ﷺ: (لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) تحمل دلالات خطـيرة أقلهـا براءة رسول الله ﷺ من هؤلاء الذين فرقوا دينهم، وحولـوه إلى شيع متناحرة.

وأخـبر القـرآن الكـريم في مقابـل ذلـك أن المسـتبدين - الذين يمثلون الشيطان – يحولون الناس إلى موالين لهم، وذلك بتحـــويلهم إلى شـــيع يتعصب كل فريق منهم لإمـــام من الأئمة يحارب به غيره، ويعتدي بـالولاء له على من عـداه، فقـال: ﴿إِنَّ

فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُـذَبِّحُ أَبْنَـاءَهُمْ وَيَسْـتَحْيِي نِسَـاءَهُمْ إِنَّهُ كَـانَ مِنَ الْمُفْسِـدِينَ [القصص: 4]

وأشار القرآن الكريم إلى ذلك الزهو الكاذب الـذي يعـتري هذه الشيع جميعا، لترى نفسها على الحق المجرد، وترى غيرهـا على الباطـل المجـرد، وهـو مـا تؤيـده كـل الأدلـة الواقعيـة والتاريخية، قال تعالى: مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ [الروم: 32]

بعد هذا التأصيل القرآني لحقيقة التشيع ومآسيه نعـود إلى التاريخ والواقع الممتلئ بالشيع التي يوبخ بعضنا بعضا، بل يكفـر بعضها بعضـا.. وسـنرى أن كـل التهم الـتي تكـال إلى شـيعة آل البيت تنطبـق تمامـا على من شـايع غـيرهم من أئمـة الفقـه أو العقيـدة أو السـلوك أو السياسـة أو غيرهـا من منـاحي الـدين والدنيا.

وبما أن الأمثلـة على ذلـك أكـثر من أن تحصـى أو تعـد، أو يكفي هذا المقال القصـير للدلالـة عليهـا، فإنـا سـنكتفي بمثـال بسيط يزعم التسنن، ويجعل مشـروعه الأكـبر محاربـة الشـيعة والتشيع، وينسى أن الخلاف بينه وبين الشيعة الذين يحــاربهم لا يقع سوى على المصاديق، أما المفاهيم فيتفق عليها مع الشيعة اتفاقا تاما.

ففي الوقت الذي يشايع فيـه شـيعة آل الـبيت اثـني عشـر إماما ابتداء من الإمـام علي وانتهـاء بالإمـام المهـدي، معتقـدين أحقيتهم ببيـان أمـور الـدين، وأنـه لا يقـدم عليهم أحـد في هـذا المجال، لخصوصية خصوا بها.. نجد هذا المنطق عند شــيعة ابن تيمية.. فهم يعتبرونـه شـيخ الإسـلام، والنـاطق الرسـمي باسـم الإسلام، وكل رأي يـراه صـواب، وكـل حـديث يصـححه صـحيح، حتى لو خالفه فيه الأئمة الأفـذاذ، وكـل حـديث يضـعفه ضـعيف إلى يـوم القيامـة، حـتى لـو اكتشـف اللاحقـون من طرقـه مـا يصححه..

ولم يكتفوا بهذا، بـل أعطـوه من الهالـة والهيلمـان مـا لـو أعطى الشيعة مثله لأئمتهم لبدعوا بسببه..

وسأذكر هنا بعض الأمثلة على ذلك، وخصوصـا ممن نـذروا حيـاتهم في حـرب الشـيعة، وفي حـرب التطـرف الشـيعي، ومواجهة الغلو الشيعي في الأئمة..

ولنبدأ بمثال نراه على جميع القنوات الفضائية، وكأنه إمـام من الأئمة المعصومين، الذين لا يحل نقدهم أو الحديث عنهم إلا بما تتطلبه مكانتهم السامية الرفيعة في سلم الكهنوت الديني.

هـذا الإمـام المعصـوم هـو الشـيخ عـائض القـرني، والـذي تواضع جدا أمام إمامه الأكبر شيخ الإسلام ابن تيمية، فألف كتابا في فضائله ومناقبه التي لا تعد ولا تحصى، ومـع ذلـك كلـه ذكـر أنه في حديثه عنه لم يبحر في بحره، وإنما اقتصر على الوقوف على ساحله، ولهذا سمى كتابـه (على سـاحل ابن تيميـة)، وقـد أثبت فيه بالأدلة القاطعة أن شيخ الإسلام ابن تيمية هو المـربى والمفسر والمحدث والفقيـه والمنـاظر والمجاهـد والعابـد، وأن مثله كمثل بحر لجى لكنه عذب، محيط هادر لكنه فرات، (وهـل يسـتطيع المـرء - ولـو أجـاد السـباحة - أن يغـوص فى أعمـاق البحـر، أو أن يهبـط إلى قعـر المحيـط؟ كلا لا يسـتطيع، ولكنـه يستطيع أن يطل إطلالة)[1]

لن أتصرف في ما قال هذا الإمـام المعصـوم حـول إمامـه الأكـبر ابن تيميـة، ولكـني فقـط أود من القـارئ أن يأخـذ هـذه الكلمات، ثم يلقيها أمامه أو أمـام أي متشـيع لابن تيميـة، ولكن بدل أن يذكر اسم ابن تيمية يذكر الإمام علي، أو غيره من أئمة آل الـبيت.. وسـيرى كيـف يواجـه بـالتطرف والغلـو والتشـيع والزندقة والمجوسية وغيرها.. وطبعا إن سمح لـه بإنهـاء حديثـه قبل قلع لسانه أو قطع حنجرته.

قال القرني في مقدمة كتابه (على ساحل ابن تيمية) هـذه

1() النص مقتبس من مقدمـة كتـاب (على سـاحل ابن تيميـة) لعـائض القـرني ببعض التصرف الذي يقتضيه المقام، وهكذا بعض النصوص التي نوردها في هذا المقـام حـتى لا يقال بأننا نقولهم ما لم يقولوا.

القصيدة الرائعة أو اللطمية البديعة في الحنين إلى إمامه:

(من الذي عنده شغف بالمعرفـة، وميـل على العلم، وحب في الاطلاع، وهو لا يعرف ابن تيمية ؟

من الذي لديه همة في المجد، وعزيمـة في الخـير، ورغبـة في الصلاح، ثم لا يعرف ابن تيمية ؟

هل الشمس بحاجة إذا توسطت السماء في يوم صـحو أن ينبه على مكانتها ؟

هل القمـر في ليلـة اكتمالـه والسـماء صـافية بحاجـة لمن يشيد بعلوه وسنائه ؟

إن ابن تيمية بلغ من الحظوة والرفعة وسـمو المنزلـة إلى درجة أنه استغنى عن لقب الشيخ، والعالم، والإمـام، والمجـدد، وصار أحسن اسمائه أنه: ابن تيمية !

عاشت بعض الدول خمسة قرون، ثم اندرسـت وذهبت فلا اثر ولا عين، ولكن هذا الجهبذ الأعجوبة بقى في ذاكرة الزمـان، وقلب الدهر، قصـة فريـدة محفوظـة للأجيـال ترددهـا الألسـن، وتترنم بها الشفاء. عاش سلاطين ووزراء، وأغنياء، وشـعراء، ثم ماتوا فماتت معهم آثارهم، وعاش ابن تيمية بلا إمـارة ولا وزارة ولا تجـارة، لكن بقى معنـا ومـع الأجيـال من بعـدنا حيـاً في الضمائر، مـاثلاً في النفـوس، حاضـراً في الـدروس والمنتـديات العلمية، ومجامع المعرفة، وصرح الثقافة.

كلما سلكنا سبل العلم، وضـربنا في فجـاج الفنـون، تلقانـا ابن تيمية، فهو إمام في التفسير، حجة في الحديث، منظـر في المعتقـد، مجـدد في الملـة، مجتهـد في الفقـه، موسـوعة في العلـوم، بحـر في السـير والأخبـار، آيـة في الـذكاء، أسـتاذ في العبقرية وسامحني – أيها القـارىء الكـريم – إن قلت إنه أصـبح اشهر من الدولة التي عاش في عهدها !)[1]

---

[1] () على ساحل ابن تيمية.

وهو بعد قوله هذا يستشعر أنه وقع في الغلو الذي طالما حذر منه، وعاتب الشيعة وكفرهم بسببه لكنه مع ذلك، ومثل الشيعة المحبين لآل البيت تماما يبرر حبه وجنونه في هذا الإمام العظيم، فيقول: (ولا نشكوا تقصيراً في حبه – رحمه الله -، لكنا نستغفر الله إن غلونا في التعلق به، كيف ننسى أياديه البيضاء وكلما قلبنا سفراً فإذا هو بين صفحاته بعلمه وحكمته وفقهه واستنباطه، وكلما حضرنا حواراً فإذا اسمه تتقاذفه الألسن، يتقاسمه المتحاورون، كل فريق يقول: أنا أولى به؟!.. كيف لا نعيش معه وقد فرض علينا احترامه، وأمتعنا بحضوره، وآنسنا بذكره الطيب ؟ كيف لا نحب من احب الله ورسوله ﷺ؟ كيف لا نتولى من تولى ربه ؟، كيف لا نقدر من قدر الشرع ؟ كيف لا نجل من أجل الوحي ؟)[1]

وعندما خشي أن يتطاول أحد من الناس، ويقول له: ما حاجتنا لكتاب في مناقب ابن تيمية.. نحن في حاجة إلى كتب في مناقب الرسول ﷺ أو آل بيته الأطهار الذين أمرت الأمة بالالتزام بهم؟.. يرد على ذلك بقوله: (دوائر المعارف تترجم عن دول بصفحتين وثلاث، ولكنها تتحدث عن ابن تيمية بعشرين صفحة، المجامع العلمية تذكر المصطلحات في سطر، ولكنها تتكلم عن ابن تيمية في ثلاثين سطرا، ولسنا متفضلين على ابن تيمية إذا مدحناه أو ذكرنا مناقبه أو عددنا سجاياه، لكنه متفضل علينا – بعد الله – بفيض علمه، وغيث فهمه، وبركة إنتاجه، ونور آثاره..) [2]

هذا نص مقتضب من مقدمة القرني لكتابه حول ابن تيمية، فإذا ما دخلنا إلى داخل الكتاب وجدنا العجب العجاب.. فابن تيمية أكبر بكثير من كل التصورات التي نتصوره بها.. إنه عظيم لدرجة أننا مهما تخيلنا قدراته وعبقريته، فإن عقلنا يقصر عن فهم ذلك.

1() على ساحل ابن تيمية.

2() على ساحل ابن تيمية.

وهي قدرات ليست مرتبطة بالعلم فقط.. بل مرتبطة قبل ذلك بالطهارة.. فآل البيت ليسوا وحدهم المطهرين.. بل ابن تيمية مطهر أيضا.. بل أين طهارة آل البيت أمام طهارة ابن تيمية!؟

يقول القرني تحت عنوان [طهره في شبابه]: (كان ابن تيمية من الصغر في عناية الله عز وجل وفي رعايته، فلا تعلم له صبوة، ولا تحفظ له عثرة، لم تنقل له زلة ؛ لأنه عاش في بيت إمامه وعلم وصيانة وديانة، فقد رباه أبوه المفتي الحافظ عبدا لحليم، وكان أعمامه أيضاً من أهل الولاية لله عز وجل، فنشأ بين بيته الطاهر العفيف، وبيت الله العامر المبارك، وحفظ كتاب من الصغر، وتعلم السنة وأخذ الآداب الإسلامية من أهل العلم، وحفظه الله – الحافظ – عن تهور الشباب، وطيش الفتوة، ونزق الصبا، فعاش عفيفاً ديناً مقتصداً صيناً رزيناً عاقلاً محافظاً على الفرائض، معتنياً بالسنن، كثير الأذكار والأوراد،بعيداً عن اللهو وعن البذخ والسرف واللعب وكل ما يشين الرجال، وكل ما يخدش المروءة، وكل ما يذهب الوقار ؛ فصار محل العناية من الأكابر، حتى كان يعرف إذا مر فيقال هذا ابن تيمية ؛ لاشتهاره بين أقرانه بالجد والمثابرة وحب العلم والبراعة في التحصيل، وسرعة الحفظ والذكاء، وجودة الخاطر وسيلان الذهن وقوة المعرفة) (1)

أرأيتم هذه الأوصاف العظيمة، فهي لا تقل عن وصف الإمام علي نفسه، والذي عاش في بيت رسول الله ﷺ، وتربى على يدي رسول الله ﷺ.. وابن تيمية لا يقل عنه في ذلك كله إن لم يكن يفوقه فقد عاش في وسط إيمان وتقوى وسنة.. واستمر على ذلك، ولم يغير، ولم يبدل تبديلا؟

أما طاقاته فلا يمكن تصويرها، وقد ذكر القرني بعضها، فقال: (من لطائف سيرة الشيخ ابن تيمية أنه سريع الخط، فخطه أسرع من كلامه إلا أنه معلق أشد التعليق ومغلق، يفكه بعض تلاميذه كابن رشيق وغيره، ولكن الشاهد أنه ربما ألف

---

(1) على ساحل ابن تيمية.

في ألف الواحد أربع كراريس،وربما ألف الجلسة الواحدة كتاباً (كالتدمرية)، و (الحموية، و(الواسطية)، وقد درست كل واحدة منها في سنة دراسية في الجامعات، وربما كتب كتاباً في عدة أيام، فكان يتناول القلم ثم لا يتوقف، وليس عنده أوراق ولا مراجع ولا كتب قريبة منه ثم لا مصنفات، وإنما يفيض الله سبحانه وتعالى عليه من فتوحاته، ومما استودعته ذاكرته العجيبة القوية، فتنهال عليه وتسخو، وتمطره بشآبيب من المعرفة، وتسح سحاً وتسيل سيلاناً، وتتدفق تدفقاً، فيكتب سريعاً مملياً كل ما جاد به خاطره في الموضوع، من شرح لآية، أو بسط لحديث، أو كلام عقلي، أو كلام معرفي، أو كلام لخصومه من الفلاسفة وأهل المنطق وعلماء الكلام والفقهاء والصوفية، ومن سار مسيرهم من كافة الطوائف) [1]

وفي الوقت الذي يحرم فيه القرني وغيره من شيعة ابن تيمية على شيعة آل البيت الحديث عن المآسي التي حصلت في كربلاء أو غيرها، يتحدث هو بإسهاب وتفصيل شديد على المآسي التي حصلت لإمامه المعصوم شيخ الإسلام ابن تيمية، فيقول: (فابن تيمية لم يثنه ما حصل له من الأذى والكيد والمكر والمجابهة والمواجهة، بل زاده ذلك قوة وإصرار ومضاء واستمرار، فإنه واجه من الحسد ما الله به عليم حتى من أقرب المقربين إليه ؛ فحسده أرباب المذاهب الإسلامية،وأهل المشارب الفقهية، وحسده علماء الكلام،وحسده أهل الطوائف من غير أهل السنة، وآذاه كثير من الولاة والسلاطين، فافتروا عليه ونسبوا إليه ما لم يقل، ألفوا فيه الكتب والرسائل، وأهدروا دمه، وافتوا بقتله وضللوه،ودعوا السلطان إلى سجنه.. وبالفعل سجن خمس مرات، وكادوا، ومنعوا كتبه ومنعوه من التدريس، ومنعوه من الحديث ومواجهة الناس، وتناولوا عرضه، وشتموه وسبوه، وجلد مرة من المرات، وأخرج من دمشق إلى مصر، كل ذلك والرجل منشرح الصدر، وصابر مصابر محتسب على ما أصابه في سبيل الله مصر على تبليغ فكرته، مستمر عل الدعوة إلى الله عز وجل، لا يزيده الكيد إلا قوة وثباتاً

1() على ساحل ابن تيمية.

وصبراً واحتساباً، فصار مضرب المثل في ذلك كله، وتعجب أصدقاؤه وخصومه من شجاعته ومن إصراره – رحمه الله -، فما ثناه حبس ولا قيد ولا جلد ردود ولا تهديد ولا وعيد عندما قام له من تجديد أمر الأمة، بل كلما آذوه نشراً لعلمه، وصبراً على خصومه، وحباً لأصحابه ن وثقة في وموعود ربه، وتفويض الأمر إلى خالقه، ورضا بكفايته ووكالته – سبحانه وتعالى -، وتفاؤلاً بالعافية الحسنة، وبذلك صارت له – بفضل الله – العاقبة الحسنة، فانتشرت كتبه وتأليفه، وانتصر على حاسديه، وكبت خصومه وصارت الدولة له والدائرة على أعدائه) (1)

ليس في إمكاني أن أقيس كل كلمة قالها القرني عن ابن تيمية على مثلها مما يقوله الشيعة في أئمتهم، لأن المقارنة تفضي إلى أن القرني ليس سوى شيعي يقول بعصمة الأئمة، وأنه لا فرق بينه وبينهم سوى في أن إمامهم علي، وإمامه ابن تيمية.

ولو أن المطبعة أخطأت فاستبدلت اسم ابن تيمية باسم الإمام علي أو باسم الإمام الحسين، وقدم له الكتاب، لرمى صاحبه بالكفر والضلالة والغلو.. ولأباح دمه، كما أباح إمامه ابن تيمية دماء الشيعة.

والأمر ليس قاصرا على القرني، فهو مجرد مثال ونموذج بسيط عن شيعة ابن تيمية، أما المغالون في حبه وولايته، فلا عد لهم ولا حصر..

وكمثال آخر على ذلك، وهو علم كبير من أعلام شيعة ابن تيمية المعاصرين، وهو أول من أدخل التشيع لابن تيمية في الكويت عندما وطئت قدماه أرضها في عام 1964 وسعى معلما في مدارسها الحكومية وموجها لمدرسي التربية الاسلامية.. وقد تصدى لكل النواصب الذين ناصبوا ابن تيمية العداء من متصوفه وأشاعرة ورافضة وغيرهم.. ولديه الكثير من المؤلفات والرسائل والردود في هذا المجال، لعل أهمها

---

(1) على ساحل ابن تيمية.

كتابه [لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيميـة]، والـذي حـاول فيه كصنوه القرني أن يقتصـر على بعض الملامح من حيـاة ابن تيميـة لأنـه يصـعب على أي مـوال لابن تيميـة أن يحيـط بحياتـه جميعا.

يقول في كتابه هذا بثقة عظيمـة، وكأنـه اطلـع على اللـوح المحفوظ: (إن شيخ الإسلام ابن تيمية من النفـر القليـل الـذين كانت حياتهم كلها لله، والذين دعوا إلى الله على بصيرة.. ولقـد تعرض شيخ الإسلام في سبيل ذلك إلى تفنيد مزاعم قوى الشر كلها التي انتشـرت وسـادت المسـلمين في عصـره في القـرن السابع الهجري وأوائـل الثـامن.. فتصـدى بـالرد على الفلاسـفة وأذنـابهم، والرافضـة وأكـاذيبهم، والباطنيـة وخبثهم ونفـاقهم، والصوفية وعقائدهم الفاسدة وترهـاتهم، وللمتكلمين وخلفـائهم وتـأويلاتهم الباطلـة، وللمقلـدين وعبـادتهم لشـيوخهم وتعصـبهم لآرائهم المخالفة للكتاب والسنة، والنصـارى وضـلالهم، واليهـود وخبثهم وأفسـادهم، وألـف في كـل ذلـك وكتب ودرس وسـافر وارتحل وناقش ولم يكتف بهذا أيضاً بل جرد سيفه لقتال التتـار فجمع الجمـوع لملاقـاتهم، ووحـد صـفوف المسـلمين لحـربهم، وخاض المعارك ونصره الله عليهم.. وعالم هذا شأنه لا شك أن يكثر أعداءه وحساده.. فقد عادى الـدنيا كلهـا في اللـه وخاصـم كل منحرف في ذات الله، ولم يداهن أميراً ولا وزيراً في الحق، بل صدع به حيث كان، ولذلك كثرت ابتلاءاتـه ومحنـه فلا يخلص من محنة إلا ودخل في أخرى، ولا ينتهي من سجن حتى يزج بـه في سجن آخر، ولا ينصـر في محاكمـة حـتى تعقـد لـه محاكمـة جديدة.. وكل ذلك وهو صـابر محتسـب، بـل فـرح مستبشـر أن أكرمه الله بكل هذه الكرامات وهيأ له كل هذه الأسباب لينشـر علمه وتعظم محبة أهل الخير له، فكان قدوة للعالمين من أهل الخير في زمانه، ونموذجاً للعلماء العـاملين في وقتـه، بـل كـان من تلاميـذه جهابـذة الأمـة في كـل فـرع من فـروع المعرفـة الدينية.. ثم أصبحت كتبه من بعده هي الهادي والمرشد لعقيـدة أهل السنة والجماعـة، بعـد أن لبس الملبسـون من أهـل الكلام والزندقة على الناس، ونشروا عقائدهم الباطلة في الأمة فقـام هـذا المجـدد الفـرداني والعـالم الربـاني فكشـف بنـور القـرآن

والسنة أضاليل أهل الكلام والبدعة والزندقة والردة)[1]

وهكذا استمر الشيخ يردد هذا وأمثاله إلى أن نفث في روع الكثيرين من شيعة ابن تيمية أنه لولا ابن تيمية لما بقيت للإسلام قائمة.. وأنه لا يمكن لأحد أن يعرف الدين الصحيح.. ولا أن يطمع في دخول الجنة إن لم يعرف ابن تيمية ويقرأ كتبه ويكتفي بها.

هذان نموذجان عن شيعة ابن تيمية، وغلوهم فيه، وفي إمكان القارئ أن يعود إلى الكتب الكثيرة ليرى كيف ينظر هؤلاء إلى ابن تيمية، ويقارن ذلك بنظرة شيعة آل البيت لمن يشايعونهم.. وسيرى بعينه أن كل طامة اتهم بها شيعة ابن تيمية شيعة علي وقعوا فيها، بل وقعوا فيما هو أخطر منها.

ليس ذلك فقط.. بل إن الثقاة من العلماء من شيعة ابن تيمية يذكرون العجائب والغرائب من بركاته، ومن ذلك ما جاء في كتاب (الرد الوافر على من زعم بأن من سمى ابن تيمة شيخ الاسلام كافر) في الحادثة التي حصلت مع البطائحي المزي، وراوها لابن حجي قال: كنت شابا، وكانت لي بنت حصل لها رمد، وكان لنا اعتقاد في ابن تيمية، وكان صاحب والدي، ويأتي إلينا ويزور والدي، فقلت في نفسي: لآخذن من تراب قبر ابن تيمية فلأكحلها به، فإنه طال رمدها ولم يفد فيها الكحل، فجئت إلى القبر، فوجدت بغداديا قد جمع من التراب صررا، فقلت: ما تصنع بهذا، قال: أخذته لوجع الرمد، أكحل به أولادا لي، فقلت: وهل ينفع ذلك؟ فقال: نعم.. وذكر أنه جربه فازددت يقينا فيما كنت قصدته، فأخذت منه، فكحلتها وهي نائمة، فبرئت، قال: وحكيت ذلك لابن قاضي الجبل أبي عمر المقدسي، وكان يأتي الينا، فأعجبه ذلك، وكان يسألني ذلك بحضرة الناس فأحكيه، ويعجبه ذلك [2] .

وهكذا صار التراب الذي دفن فيه تيمية شفاء للناس.. فلم

---

[1]() النص مقتبس بتصرف من كتاب الشيخ عبد الرحمن الخالق المعنون بـ (لمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية)

[2]() الرد الوافر ، 129-130.

العتب يا شيعة ابن تيمية على من يستشفون بتراب الحسين؟

بل صار ابن تيمية قسيما للجنة والنار.. كما ينص على ذلك الشيخ ابن عثيمين حين ذكر أنه يشهد لابن تيمية بالجنة، ويشهد لأعدائه بالنار، فقال في [شرح رياض الصالحين]: (وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أجمع الناس على الثناء عليه إلا من شذ، والشاذ شذ في النار، يشهد له بالجنة على هذا الرأي) [1]

ولذلك من العجب أن يعاتب شيعة ابن تيمية شيعة علي على وصفهم لإمامهم بكونه قسيم الجنة والنار.. وهم يقولون بنفس قولهم، ويرددون نفس أحكامهم.

1() شرح رياض الصالحين 4/ 570 - 573.

الوحدة لا تكسر التعدد

من أخطر العقبات التي تحول بين المسلمين والتفكير في الوحدة هو خـوفهم على مـذاهبهم وأئمتهم والأفكـار الـتي ربـوا عليها، والطقوس التي عاشوا يمارسونها.

وهذا خوف لا مبرر له من الناحية الشرعية، ولا من الناحية العقليـة، ولا من الناحيـة الواقعيـة، ولا من ناحيـة الأئمـة الـذين يأخذون منهم دينهم، ويعيشون في صحبتهم والولاء لهم.

أما من الناحية الشرعية.. فالشـريعة بمصـادرها المقدسـة تـذكر أن المقصـد الأول لتعـدد البشـر في أعـراقهم وألـوانهم وأديانهم هو التعارف .. وهو لن يكون من دون تعايش واحتكـاك وتواصل.. ولو كان لذلك كله خطـر على العقيـدة والـدين لنهينـا عن الاحتكاك بغيرنا، ولأمرنا أن نبني لأنفسنا عالما خاصا، نكون فيه لوحدنا، ولا يكون معنا فيه غيرنا.

وقد قال الإمام علي في تطبيق تلك التعاليم المقدسة في خطابه لمالك الأشتر: (يا مالك إن الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق)

أما من الناحيـة العقليـة، فـإن سـنة اللـه الجاريـة في كـل شـيء قائمـة على التنـوع والاختلاف، فهمـا موجـودان في كـل الأشياء.. وقد أشـار إلى ذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَـعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْـرُ صِـنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِـدٍ وَنُفَضِّـلُ بَعْضَـهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُـلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: 4]، وقد ختمت الآية الكريمة بهذه الفاصلة العظيمـة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِقَـوْمٍ يَعْقِلُـونَ ﴾، لتنبه إلى أن تجاور هذا القطع مع اختلافهـا وتنوعهـا في الألـوان والمظاهر ليس خاصا بعالم النبـات فقـط، بـل يمكن أن يتعـدى إلى كل العوالم.. بما فيها عالم الخلافة الإنسانية.

أمـا من الناحيـة الواقعيـة، فقـد شـهد التـاريخ والجغرافيـة الإسـلامية في فـترات كثـيرة تعـايش المـذاهب والطوائـف

والأديان، واستفادتها بعضها من بعض، وحوارها بعضها مع بعض، ومع ذلك بقي لكل مذهب ودين وطائفة خصوصياته.

بل إن الواقع يثبت أن تحصيل الكمال مرتبط بالقدرة على التعامل مع المتناقضات والاستفادة منها جميعا.. وقد قال أبو حامد الغزالي يحدث عن نفسه: (ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجّم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته)[1]

وبهذا الانفتاح الممتلئ بالجرأة والثقة استطاع أبو حامد الغزالي أن يدخل إلى عوالم كثيرة لم يكن ليستطيع الدخول إليها لو عاش منغلقا على نفسه وعلى مذهبه وطائفته..

ولهذا نرى كتبه تترجم للغات العالمية، ويستفيد منها أصحاب الديانات المختلفة..

وهكذا استطاع وهو الفقيه الشافعي أن يقتحم التراث العرفاني الشيعي، فقد قام الفيض الكاشاني بتهذيب الإحياء، وإضافة ما قال أئمة أهل البيت إليه، فحوله بصياغة بسيطة من كتاب كتبه رجل من أهل السنة إلى مصدر من مصادر الشيعة.. ومثله فعل صاحب جامع السعادات، وغيره من علماء الأخلاق والسلوك من الشيعة.

1() المنقذ من الضلال (ص: 109)

ذلك أن الخلافات بين الأمة ليست بالصورة التي ينفخ فيها الشيطان.. فالأمة بحمد الله تتفـق في أكثرهـا على تنزيـه اللـه عن الجسمية ولواحقها..وتتفق في عصمة الرسل.. وتتفـق في كـل القيم الأخلاقيـة.. وتشـترك في أكـثر مفـاهيم القـرآن، وإن كانت تختلف في بعض مصاديقه.. وتشترك في أكـثر الأحـاديث، وإن كانت تختلف في الأسانيد التي تروى بها.

ولذلك نستطيع بكل جزم أن نـذكر بـأن نسـبة الخلاف في الأمة لا تتعـدى واحـدا في المائـة.. لكن شـياطين الإنس والجن حولوا من ذلك الواحد مائـة، وحولـوا من نقـاط الاتفـاق صـفرا، حتى صرنا نسمع من يذكر بأن السنة والشيعة دينان مختلفان لا جامع بينهما.

هـذا من الناحيـة الواقعيـة .. أمـا من ناحيـة الأئمـة الـذين يواليهم أهل السنة، أو الأئمة الـذين يـواليهم الشـيعة.. فكلاهمـا كانوا منفتحين على بعضهم..

وقد قال الشيخ كمال الدّين بن طلحة الشافعيّ عند ذكـره للإمام الصادق: (نقل عنه الحـديث، واسـتفاد منـه العلم جماعـة من أعيان الأئمّة وأعلامهم مثل يحيى بن سعيد الأنصــاريّ، وابن جــريح، ومالــك بن أنس، والثــوريّ، وابن عيينــة، وأبي حنيفــة، وشعبة، وأيّوب السجستانيّ، وغيرهم، وعدّوا أخذهم منـه منقبـة شرّفوا بها، وفضيلة اكتسبوها)[1]

ويذكر المؤرخون أن الإمام أبـو حنيفـة إمـام الحنفيـة أخـذ العلم عن أربعة من أئمة وفقهاء أهل البيت، وهم: محمد الباقر، جعفر الصادق، وزيد بن عليّ، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، ولهم في قلبه منزلة وإكـرام، وعـرفت عنـه محبّـة واضـحة لهم [2].

1() الشافعيّ كمال الدّين محمّد بن طلحة: مطالب السؤول في مناقب آل الرسـول ص 110- 111.

2() محمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية: 361.

ويروون عنه قوله: (ما رأيت أفقه من جعفر بن محمّد)(1) ، وقال فيه كلمته المشهورة: (لولا السنتان لهلك النعمان)

وقد قال الآلوسي على مقولته تلك بقوله: (هذا أبو حنيفة وهو من أهل السنّة يفتخر ويقول بأفصح لسان: لولا السنتان لهلك النعمان، يعني السنتين اللتين جلس فيهما لأخذ العلم عن الإمام جعفر الصادق)(2)

وهكذا روي عن مالك بن أنس إمام المالكية، قوله: (جعفر بن محمّد اختلفت إليه زماناً فما كنت أراه إلّا على إحدى ثلاث خصال: إمّا مصلٍّ وإمّا صائم وإمّا يقرأ القرآن، وما رأت عين ولا سمعت أذن ولا خطر على قلب بشر أفضل من جعفر بن محمّد الصادق علماً وعبادةً وورعاً)(3)

وقال واصفا له: (وكان من عظماء العبّاد وأكابر الزهّاد الذين يخشون الله عزَّ وجلَّ، وكان كثير الحديث، طيّب المجالسة، كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله ﷺ، اخضرّ مرّة واصفرّ أخرى، حتّى ينكره من يعرفه. ولقد حججت معه سنة فلمّا استوت به راحلته عند الإحرام، كان كلّما همّ بالتلبية انقطع الصوت في حلقه وكاد أن يخرّ من راحلته، فقلت: قل يا بن رسول الله ولا بدّ لك من أن تقول، فقال: (يا بن أبي عامر، كيف أجسر أن أقول لبّيك اللهمّ لبّيك؟ وأخشى أن يقول تعالى لي: لا لبّيك ولا سعديك)(4)

وهكذ نرى الإمام الشافعي يروي عن أئمة الشيعة، ويستفيد منهم، ولا يرى حرجا في ذلك.. فعن إسحاق بن إبراهيم قال: قلت للشافعي: ما حال جعفر بن محمد عندكم؟

1() الذهبيّ: تاريخ الإسلام ج 9 ص 89.

2() التحفة الإثني عشريّة للآلوسيّ ص 8.

3() حيدر أسد: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج 1 ص 55.

4() الصدوق: علل الشرائع ج 1 ص 275.

فقال: (ثقة، كتبنا عنه أربعمئة حديث)[1]

وقد اتهم بسبب ذلك بالتشيع، وقد قال عنه الحافظ أحمد بن عبد الله العجلي: (هو ثقة، صاحب رأي ليس عنده حديث، وكان يتشيع)، وقد علق عليه الذهبي بعد أن نقل ذلك عنه بقوله: (فكان العجلي يوهم في الإمام أبي عبد الله التشيع لقوله:

إن كان رفضاً حب آل محمد فلشهد الثقلان أني رافضي[2]

وهكذا أخذ الإمام أحمد إمام الحنابلة من علماء الشيعة وجلس إليهم، واستفاد منهم، ومع ذلك كان له مذهبه الخاص.. وقد ذكر الخطيب البغدادي أن عبد الرحمن بن صالح الشيعي كان يغشى أحمد بن حنبل، فيقربه أحمد ويدنيه، فقيل له : يا أبا عبد الله .. عبد الله رافضي، فقال : سبحان الله رجل أحب قوما من أهل بيت النبي ﷺ نقول له لا تحبهم، هو ثقة)[3]

بل ذكر ابن الجوزي الحنبلي في كتابه في (مناقب أحمد) الكثير من الأعلام الذين أخذ منهم الإمام أحمد، ومنهم إسماعيل بن أبان الازدي أبو أسحاق الكوفي.. ومنهم إسحاق بن منصور السلوي أبو عبد الرحمن الكوفي.. ومنهم تليد بن سليمان المحاربي أبو سليمان الكوفي الذي قال فيه أحمد : إن مذهبه التشيّع ولم أر به بأسا.. ومنهم الحسين بن الحسن الفزاري أبو عبدالله الاشقر الكوفي.. ومنهم خالد بن مخلّد القطواني أبو الهيثم، وكان من كبار شيوخ البخاري وخرّج حديثه في صحيحه ومسلم والنسائي ومالك بن أنس في مسنده.. وغيرهم كثير.

وهكذا نرى المحدثين لا يخلو أحد منهم من أن يكون له

1() الإمام جعفر الصادق: 161.

2() الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لايوجب ردهم ص 32.

3() تاريخ بغداد: 10/261.

مشـــايخ من الشـــيعة، فمن رجـــال البخـــاري خالـــد بن مخلـــد القطواني الكوفي الـذي قـال فيـه العجلي : ثقـة وفيـه تشـيع . وقال ابن سعد : كان متشيعا مفرطا . وقال صالح جـزرة : ثقـة إلا أنه يتشيع[1].

ومنهم عبيد الله بن موسى بن أبى المختار باذام ، العبسى مولاهم ، أبو محمد الكـوفى، الـذي قـال فيـه الـذهبي: ثقـة في نفســه، لكنــه شــيعي متحــرق، وقــال أبــو داود: كــان شــيعيا متحرقا[2] .

وهكذا نرى كبار أئمة الجرح والتعديل المتشــددين يوثقــون كثيرا من رجال الشيعة، ويستشــهدون بأحــاديثهم، وقــد ورد في ســؤالات ابن الجنيــد لإمــام الجــرح والتعــديل يحــيى بن معين: سألت يحيى بن معين عن سعيد بن خثيم الهلالي، فقال: (شــيخ كوفي ليس به بـأس ثقـة)، فقـال رجـل ليحـيى: شـيعي؟ قـال: (وشيعي ثقة، وقدري ثقة)[3]

وفيها: (سمعت يحيى بن معين ذكر حسينًا الأشـقر، فقـال: كان من الشـيعة المغليـة الكبـار، قلت: فكيـف حديثـه؟ قـال: لا بـأس بـه، قلت: صـدوق؟ قـال: نعم، كتبت عنـه عن أبي كدينـة ويعقوب القمي)[4]

هــذه مجــرد أمثلــة عن مواقــف أئمــة أهــل الســنة من الاحتكاك بالشيعة والجلوس إليهم والاسـتفادة منهم.. وقـد روي مثلها عن أئمة الشيعة الذين كانوا ينهون أتباعهم عن التميز عن ســائر النــاس، بــل يــأمرونهم بمخــالطتهم، والجلــوس إليهم، والتعايش معهم بكل ما يقتضيه التعايش من معان.

فمن الروايات في ذلك ما رواه جابر الجعفي، قال: سألت

1() هدي الساري : 398.

2() ميزان الاعتدال: ج 3 ص 16 رقم [5400].

3() سؤالات ابن الجنيد لإمام الجرح والتعديل يحيى بن معين (ص: 421).

4() تهذيب الكمال في أسماء الرجال (28/ 519).

أبا جعفر الباقر: (إن لي جيراناً، بعضهم يعرف هذا الأمر ـ أي ولاية أهل البيت ﷺ ـ وبعضهم لا يعرف، قد سألوني أن أؤذّن لهم، وأصلي بهم، فخفت أن لا يكون ذلك موسَّعاً لي؟ فقال: (أذّن لهم، وصلِّ بهم، وتحرَّ الأوقات)[1]

وروي عن الإمام الصادق أنه قال: (من صلى معهم في الصف الأول كان كمَنْ صلى خلف رسول الله ﷺ في الصف الأول)[2] ، وقال: (إذا صلَّيت معهم غفر لك بعدد مَنْ خالفك)[3]

وعن أبي علي قال: قلت لأبي عبدالله الصادق: إن لنا إماماً مخالفاً، وهو يبغض أصحابنا كلهم؟ فقال: (ما عليك من قوله، والله لئن كنت صادقاً لأنت أحق بالمسجد منه، فكُنْ أول داخل وآخر خارج، وأحسن خلقك مع الناس، وقُلْ خيراً)[4]

وعن إسحاق بن عمار، قال: قال لي أبو عبدالله الصادق: (يا إسحاق، أتصلي معهم في المسجد؟ قلت: نعم، قال: (صلِّ معهم؛ فإن المصلي معهم في الصف الأول كالشاهر سيفه في سبيل الله)[5]

وعن عبدالله بن سنان قال: سمعت أبا عبدالله يقول: (أوصيكم بتقوى الله عز وجل، ولا تحملوا الناس على أكتافكم فتذلّوا، إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾، ثم قال: عودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، واشهدوا لهم وعليهم، وصلّوا معهم في مساجدهم) [6]

1() جامع أحاديث الشيعة، حديث رقم 10996.

2() وسائل الشيعة، حديث رقم10717.

3() وسائل الشيعة، حديث رقم 10718.

4() وسائل الشيعة، حديث رقم 10721.

5() وسائل الشيعة، حديث رقم 10723.

6() وسائل الشيعة، حديث رقم 10724.

وعن زيد الشحّام، عن جعفر بن محمد، أنه قال له: (يا زيد، خالقوا الناس بأخلاقهم، صلّوا في مساجدهم، وعودوا مرضاهم، واشهدوا جنائزهم، وإن استطعتم أن تكونوا الأئمة والمؤذِّنين فافعلوا، فإنكم إذا فعلتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، رحم الله جعفراً ما كان أحسن ما يؤدِّب أصحابه. وإذا تركتم ذلك قالوا: هؤلاء الجعفرية، فعل الله بجعفر ما كان أسوأ ما يؤدِّب أصحابه)[1]

وعن علي بن جعفر في كتابه، عن أخيه موسى بن جعفر، قال: (صلّى حسن وحسين خلف مروان، ونحن نصلّي معهم)[2]

وقد ذكر الإمام مالك كيفية معاملة الإمام جعفر الصادق له، فقال: (والله ما رأت عيني أفضل من جعفر بن محمد زهداً وفضلاً وعبادة وورعاً، وكنت أقصده فيكرمني ويقبل عليّ)[3]

وقال: (كنت أدخل إلى الصادق جعفر بن محمد فيقدم لي مخدّة ويعرف لي قدراً، ويقول: يا مالك، إني أحبّك، فكنت أُسَرُّ بذلك، وأحمد الله عليه)[4]

وهكذا نجد كبار علماء الشيعة ومراجعهم في القديم والحديث يفتون بالتواصل والتآلف مع سائر المسلمين، فمن المتقدمين قال الشهيد الأول محمد بن مكي العاملي: (ويستحبّ حضور جماعة العامة، كالخاصة، بل أفضل، فقد روي: من صلى معهم في الصف الأول كان كمَنْ صلى خلف رسول الله، فيه. ويتأكد مع المجاورة. ويقرأ في الجهرية سرّاً، ولو مثل حديث النفس، وتسقط لو فجأه ركوعهم، فيتمّ فيه إن أمكن، وإلا سقط)[5]

1() جامع أحاديث الشيعة، حديث رقم 10995.

2() وسائل الشيعة، حديث رقم 10725.

3() بحار الأنوار 47: 20.

4() بحار الأنوار 47: 16.

ومن المتأخرين قال السيد شرف الدين الموسوي: (حاشا أمير المؤمنين ـ علياً ـ أن يصلّي إلا تقرُّباً لله وأداءً لما أمره الله به، وصلاته خلفهم ــ أي الخلفاء ــ ما كانت إلا خالصة لوجهه الكريم، وقد اقتدينا به ع، فتقرّبنا إلى الله عزّ وجلّ بالصلاة خلف كثير من أئمّة جماعة أهل السنّة، مخلصين في تلك الصلوات لله تعالى. وهذا جائز في مذهب أهل البيت. ويُثاب المصلّي منّا خلف الإمام السني كما يُثاب بالصلاة خلف الشيعي. والخبير بمذهبنا يعلم أنّا نشترط العدالة في إمام الجماعة إذا كان شيعيّاً، فلا يجوز الائتمام بالفاسق من الشيعة، ولا بمجهول الحال، أمّا السنّي فقد يجوز الائتمام به مطلقاً)(6)

بعد هذا، فإن ما نراه في الواقع من هذا الفصام النكد الذي يمارس باسم المذاهب والطوائف لا علاقة له بالدين ولا بالعقل ولا بأئمة أولئك المذاهب أنفسهم، وإنما يقف خلفه الشيطان الذي لا يجتهد في شيء كما يجتهد في تفريق صف الأمة، وإشاعة الشحناء بينها.

ويقف خلف الشيطان ومعه زعماء الاستكبار العالمي الذين بذلوا أموالا ضخمة لتنسى الأمة أعداءها الحقيقيين وتضيع في متاهة عدواة بعضها لبعض.

وللأسف فقد نسيت الأمة علماءها الكبار من المذاهب المختلفة الذين حرصوا على الوحدة والتقارب بين المسلمين كالشيخ محمد الغزالي ومحمود شلتوت وعبد الحليم محمود ومحمد أبو زهرة والتسخيري والقمي وشرف الدين الموسوي.. تركت كل هؤلاء واستبدلتهم بفتية أغرار بلا علم ولا عقل من أمثال العريفي والحويني وحسان واللهياري وياسر الحبيب وغيرهم من مشعلي الفتن.

5() محمد بن مكي العاملي، الدروس الشرعية، ضمن سلسلة الينابيع الفقهية، الصلاة 10: 651.

6() أجوبة مسائل موسى جار الله 4: 73.

من عجائب التناقضات التي وقعت فيها هـذه الأمـة، ووقـع فيها خصوصا فقهاؤهـا، وخصوصـا الكثـير من المعاصـرين منهم تلـك العنجهيـة الـتي يواجهـون بهـا طائفـة محترمـة من الـدين، ومــذهبا لــه جــذوره التاريخيــة الــتي تمتــد إلى العصــر الأول، ومدرسـة لهـا علماؤهـا وفقهاؤهـا الكبـار الـذين لا يقلـون فقهـا وعلما ودرايـة عن غـيرهم من علمـاء المـدارس الإسـلامية، في نفس الـوقت الـذين يقبلـون أقـوالا فقهيـة ضـعيفة، بـل شـاذة، ويقبلون أعلاما نطقوا بطامات لا تتعلـق بـالموقف من الصـحابة فقــط، بــل بــالموقف من اللــه تعــالى، والموقــف من رســله والقطعيات من دينه.. وهذا عجب عجاب.

فعكرمــة مثلا، نجــد كــل الفقهــاء بمن فيهم المعاصــرون منهم، يثنون عليه، ويقبلون حديثه، ويقبلـون أقوالـه في تفسـير القرآن، ويقبلون آراءه الفقهية، ويضـعونه ضـمن المعتـبرين في الإجماع، مع ما اتهم به من الكذب، فقد روي عن ابن عمــر أنــه قال لنـافع لا تكـذب عليَّ كمـا كـذب عكرمـة على ابن عبـاس.. وذكــر عن جريــر بن عبــد الحميــد عن يزيــد بن أبي زيــاد، قــال: دخلت على علي بن عبد الله بن عباس وعكرمــة مقيــد، فقلت: ما لهذا؟ قال: إنه يكذب على أبي [1].

وليس ذلك فقط، بل كان ـ كما يذكر الكثير من المــؤرخين ـ يرى رأي المتشددين من الخوراج، والـذين يحكم عليهم هـؤلاء العلماء بأنهم كلاب أهل النار.. فقد قـال ابن حجـر في (مقدمـة فتح البـاري): (وفـد عكرمـة على نجـدة الحـروري فأقـام عنـده تسعة أشهر ثم رجع إلى ابن عباس فسلم عليه، فقال: قد جــاء الخبيث قال: فكان يحدث برأي نجدة، وكان يعني نجدة أول من أحدث رأي الصفرية وقال الجوزجاني قلت لأحمد بن حنبل أكان عكرمة إباضيا فقال: يقال: إنه كان صفرياً، وقال أبو طـالب عن أحمد كـان يـرى رأي الخـوارج الصـفرية، وقـال يحـيى بن معين

[1] () انظر: وفيات الأعيان 1ـ 320، وتهذيب التهذيب 7ـ 238 وسير أعلام النبلاء للذهبي 5: 22.

كـان ينتحـل مـذهب الصـفرية ولأجـل هـذا تركـه مالـك، وقـال مصعب الزبيري كان يرى رأي الخوارج)(1)

ومـع كـل هـذه التهم نجـد لعكرمـة حضـورا قويـا في أهم المصـادر المرتبطـة بالكتـاب والسـنة والفقـه والعقيـدة.. فهـو مفسر وراوية وفقيه.. وله السند السلفي والخلفي الذي يحميـه ويصد كل التهم التي ووجه بها.

ومثله، أو قد يفوقه مقاتل بن سليمان البلخي الذي كان له هـو الآخـر حضـورة القـوي في جميـع مصـادر الـدين وخصوصـا التفسير؛ حتى روي عن ابن المبارك أنه قال: (ما أحسن تفسير مقاتل لو كان ثقة)(2)

ومع هذا القول فهم يتعاملون معه كثقة، فـإذا حكـوا خلافـا في تفسير لفظة أو آية قرآنية، ذكـروا من القـائلين بـه (مقاتـل بن سليمان) وفي إمكان القارئ الرجوع لأي تفسير ليرى ذلك..

ولـو رجعنـا إلى الكتب المؤرخـة للملـل والنحـل نجـد من أقواله العجب العجاب، فقد قال الأشـعري ــ والـذي يرجـع إليـه ابن تيمية وغيره كثيرا عند إيراد أقوال أصحاب الفرق المختلفـة ـ: (حكي عن أصحاب مقاتل أن الله جسـم، وأن لـه جثـةً، وأنـه على صـورة الإنسـان لحم ودم وشـعر وعظم وجـوارح وأعضـاء من يد ورجل ورأس وعينين مصمت، وهو مع ذلك لا يشبه غيره ولا يشبهه غيره)(3)

وحكى عنه الشهرستاني ـ وهو الآخر من المصادر المعتبرة التي يرجع إليها هـؤلاء العلمـاء عنـد حـديثهم عن الشـيعة ــ أنـه قال: (قد ورد في الخبر أن الله خلق آدم على صـورة الـرحمن، فلا بد من تصديقه)(4)

1() مقدمة فتح الباري 425.

2() ميزان الاعتدال للذهبي 4/173..

3() مقالات الإسلاميين 152و209..

4() الملل والنحل178.

ومن مرويات مقاتل في التجسيم ما أخرجه الذهبي بسنده عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال: (إذا كان يوم القيامة ينادي مناد أين حبيب الله؟ فيتخطى صفوف الملائكة حتى يصير إلى العرش حتى يجلسه معه على العرش حتى يمس ركبته)[1]

وقال ابن حبان: (كان يأخذ عن اليهود والنصارى علم القرآن الذي يوافق كتبهم، وكان مشبهاً يشبه الرب بالمخلوقين وكان يكذب مع ذلك في الحديث)[2]

وقال الذهبي: (ظهر بخراسان الجهم بن صفوان ودعا إلى تعطيل صفات الله عز وجل.. وظهر في خراسان في قبالته مقاتل بن سليمان المفسر وبالغ في إثبات الصفات حتى جسم وقام على هؤلاء علماء التابعين وأئمة السلف وحذروا من بدعهم)[3]

بعد كل هذا وغيره نرى ابن تيمية يقبله، بل يثني على علمه بالتفسير مع كون التفسير أخطر العلوم، وأحوجها إلى الثقاة، فالتفسير هو بيان مراد الله من النص، ولذلك يرقى لأعلى مقام في المصادر الشرعية.

يقول ابن تيمية عنه: (وأما مقاتل فالله أعلم بحقيقة حاله والأشعري ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلة وفيهم انحراف عن مقاتل بن سليمان فلعلهم زادوا في النقل عنه أو نقلوا عن غير ثقة وإلا فما أظنه يصل إلى هذا الحد.. ومقاتل بن سليمان وإن لم يكن يحتج به في الحديث لكن لا ريب في علمه بالتفسير وغيره)[4]

1() ميزان الاعتدال 4/174.

2() الضعفاء لابن الجوزي 1/136.

3() طبقات الحفاظ 1/159.

4() منهاج السنة 2/618.

وليت ابن تيمية ومن تبعه من العلماء استعملوا هذا الـورع في تعاملهم مع الفرق المختلفة.. لكن المكاييـل المزدوجـة هي المسيطرة على أمثـال هـذه العقـول، فهي تميـل لكـل مجسـم مشبه ينقل من تراث الأمم المختلفة.. وهي أبعد عن كـل مـنزه موحد يحرم الأخذ بغير ما ورد في النصوص المعصومة.

هذان موقفان من رجلين لا شك في كون بدعتهما عظيمـة وخطيرة على الدين، وقد أضافا إليها الكذب، ومع ذلك نجد ذلك التسامح واللين والرحمة في قبول أقوالهمـا في مصـادر الـدين الكبرى، وقـد عومـل مثلهمـا ومن لا يقـل عنهمـا ككعب الأحبـار ووهب بن منبـه وغيرهمـا كثـير بنفس تلـك المعاملـة الممتلئـة بالتسامح واللطف واللين..

ولهذا نجد للكثير من أمثال هؤلاء حضـورا قويـا عنـد تعـداد الأقـوال في التفسـير والحـديث والفقـه والتوحيـد وغيرهـا من العلوم الشرعية، حتى أصـبحت أسـماؤهم مألوفـة لا ينفـر منهـا القارئ، بل لعله يتبرك بها.

لكن هذه الرحمة، وذلك التسامح يتحول إلى ضده إذا ذكـر الـرأي الشـيعي، حـتى لـو كـان القائـل بـه إمامـا كبـيرا كجعفـر الصادق، أو محمد الباقر، بل حتى لو كان القائل به الإمـام علي بن أبي طالب نفسـه.. فـإذا قيـل في مسـألة من المسـائل: إن للشيعة رأي مخالف فيهـا.. تجهمت الوجـوه، وعبسـت، وقطبت جبينهـا، وكأنـه لم تـذكر طائفـة من المسـلمين، وإنمـا ذكـر الشيطان نفسه.. وهذا ظلم عجيب.

وقد أشار إلى هـذا الظلم، وإلى هـذه المكاييـل المزدوجـة الفقيه الكبير الشريف المرتضى، والذي على أساسه ألف كتابه العظيم (الانتصار)، والذي قال في مقدمته عند بيـان هدفـه من تأليفه: (إن الشناعة إنما تجب في المذهب الـذي لا دليـل عليـه يعضده، ولا حجة لقائله فيه، فإن الباطل هـو العـاري من الحجج والبينات، البرى من الدلالات، فأما ما عليه دليـل يعضـده وحجـة تعمده فهو الحق اليقين، ولا يضره الخلاف فيه وقلة عدد القائل به، كما لا ينفع في الاول الاتفاق عليه وكثرة عدد الـذاهب إليـه،

وإنما يسأل الذاهب إلى مذهب عن دلالته على صحته وحجته القائدة له إليه لا عمن يوافقه فيه أو يخالفه)[1]

وهي كلمة مهمة جدا أشار بها الشريف المرتضى إلى ذلك الصمم الذي يصيب أولئك العلماء عندما تقول لهم: لا بأس دعنا من القائل.. ولنسمع للقول وحجته.. فعسى أن يكون فيه وجه صحة.. وعسى أن نرى فيه من الرؤى ما يحتمل قبوله..

لكن هؤلاء العلماء ــ ولست أدري لم ــ يصمون آذانهم، فيرفضون سماع الحجج حتى لو كانت آيات قرآنية واضحة، أو أحاديث نبوية صريحة..

ثم يعقب الشريف المرتضى على ذلك بقوله بنبرة ممتلئة بالألم والحزن على تلك المكاييل المزدوجة: (على أنه لا أحد من فقهاء الأمصار إلا وهو ذاهب إلى مذاهب تفرد بها مخالفوه كلهم على خلافها، فكيف جازت الشناعة على الشيعة بالمذاهب التي تفردوا بها، ولم يشنع على كل فقيه كأبي حنيفة والشافعي ومالك ومن تأخر عن زمانهم بالمذاهب التي تفردوا بها، وكل الفقهاء على خلافه فيها، وما الفرق بينما انفردت به الشيعة من المذاهب التي لا موافق لهم فيها، وبين ما انفرد به أبوحنيفة أو الشافعي من المذاهب التي لا موافق له فيها؟)[2]

وهذا قول صحيح، وتدل عليه كل المصادر.. بل نرى أن أقوالا عجيبة لأصحاب تلك المذاهب يخرق بها الإجماع، مع شذوذها، وغرابتها، ومن أمثلتها تفريق المالكية بين الشريفة والدنية في أحكام كثيرة، وقول الشافعية بجواز زواج الرجل من ابنته من الزنا حتى وإن كان يعلم أنها ابنته..

لكنا للأسف نجد أن هؤلاء العلماء يغضون الطرف عن تلك الأقوال، بل يدافعون عن القائلين بها، بل يوصون بكتمان ما ورد من أمثالها حرصا على ما يطلقون عليه [أهل السنة] ومقصودهم السنة المذهبية، لا السنة النبوية.

1() الانتصار (3/ 1)

2() الانتصار (3/ 1)

وقد ذكر ابن تيمية مقولة الشافعي في جواز زواج الرجل من ابنته من الزنا، فقال: (ومثل هذه المسألة الضعيفة ليس لأحد أن يحكيها عن إمام من أئمة المسلمين لا على وجه القدح فيه ولا على وجه المتابعة له فيها، فإن ذلك ضربا من الطعن في الأئمة وأتباع الأقوال الضعيفة، وبمثل ذلك صار وزير التتر يلقى الفتنة بين مذاهب أهل السنة حتى يدعوهم إلى الخروج عن السنة والجماعة، ويوقعهم في مذاهب الرافضة وأهل الإلحاد)(3)

وهذا من ابن تيمية غريب جدا، فهو في كتبه يحكي أقوالا غريبة شاذة يتهم بها الشيعة مع أنهم هم أنفسهم ينفرون منها، ويكذبونها، ويعلنون البراءة منها، ومع ذلك لا يزال أتباعه يشيعونها عن الشيعة من غير رجوع منهم لمصادرهم التي تمثلهم.

بينما إذا تعلق الأمر بالشافعي أو مالك أو غيره من المذاهب، فإنه يوصي بكتمان أقوالهم الغريبة الشاذة.. وهذا من التطفيف الذي نهينا عنه.

بعد ذلك يذكر الشريف المرتضى وجها من وجوه الاستدلال التي يستند إليها التيار السلفي خصوصا، وهي أن لأقوال أئمة المذاهب جذورها في القرون الأولى، أو في السلف الأول، وهي لذلك معتبرة، فيقول ــ مطالبا لهم بالمعاملة بالمثل مع المدرسة الشيعية ـ: (فإن قالوا: إن الفرق بين الأمرين ان كل مذهب تفرد به أبوحنيفة فله موافق من فقهاء أهل الكوفة فيه، أو من السلف المتقدم، وكذلك ما تفرد به الشافعي له فيه موافق من أهل الحجاز أو من السلف، وليس كذلك الشيعه. قلنا: ليس كل مذهب تفرد به أبوحنيفه أو الشافعى يعلم أن أهل الكوفه وأهل الحجاز أو السلف قائلون به،وإن ادعى ذلك دون ما هو معلوم مسلم غير منازع فيه، فالشيعة أيضا تدعي وتروي أن مذاهبها التي انفردت بها هي مذاهب جعفر بن محمد الصادق ومحمد بن علي الباقر وعلي

3() كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه: 32/137.

بن الحسين زين العابدين عليهم السلام، بل تروي هذه المذاهب عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه وتسندها إليه، فاجعلوا لهم من ذلك ما جعلتموه لأبي حنيفة وللشافعي وفلان وفلان، أو انزلوهم على أقل الأحوال منزلة ابن حنبل وداود ومحمد بن جرير الطبري فيما انفردوا به، فإنكم تعذرونهم خلافا فيما انفردوا به، ولا تعذرون الشيعة خلافا فيما انفردوا به، وهذا ظلم لهم وحيف عليهم)(1)

ويذكر الشريف المرتضى بألم وحرقة كيف يعتد في الإجماع بآراء أبي حنيفة التي تستند للقياس مع كون ذلك مما (لا يمكنه أن يدعي أن له في القول بها سلفا من الصحابة ولا التابعين.. فكيف لم يشنعوا عليه بأنه ذهب إلى ما لم يذهب إليه أحد قبله وشنعتم على الشيعة بمثل ذلك؟)(2)

وبمناسبة ذكر الشريف المرتضى لأبي حنيفة، فإن هذا يدلنا على مكيال آخر من المكاييل المزدوجة التي يتعامل بها هذا الصنف من العلماء مع الشيعة، ذلك أنهم يستندون في عدم اعتبار الشيعة عند ذكرهم للإجماع لما قال علماء السلف الذين يعتبرونهم في الجرح والتعديل، والقبول والرفض.. مع أن نفس أولئك العلماء تكلموا في أبي حنيفة كلاما شديدا ربما يكون كلامهم في الشيعة أدنى منه.

فقد ساق عبد الله بن أحمد في كتابه (السنة) مجموعة كبيرة من الاتهامات والشتائم التي وجهها من يسمونهم أئمة السلف لأبي حنيفة من أمثال: (كافر، زنديق، مات جهمياً، ينقض الإسلام عروة عروة، ما ولد في الإسلام أشأم ولا أضر على الأمة منه، وأنه أبو الخطايا، وأنه يكيد الدين، وأن الخمارين خير من أتباع أبي حنيفة، وأن الحنفية أشد على المسلمين من اللصوص)(3)

---

(1) الانتصار (3/ 3)

(2) الانتصار (3/ 3)

(3) السنة، لعبد الله بن أحمد، من ص 180 -ص120.

ثم ذكر الشريف المرتضى تلك التهمـة الغريبـة الـتي خص الشـيعة بالاتهـام بهـا دون من سـواهم، وهي أن جميـع أصـحاب الصـادق والبـاقر وغيرهمـا من آل بيت النبـوة كذبـة، ولا يصـح النقل عنهم في ذلك، بخلاف سائر الفقهاء الـذين لا يصـحبهم إلا الصادقون.

يقول الشريف المرتضى معبرا بألم عن هذه التهمـة الـتي لا نزال نسمعها كل حين: (فإن قالوا: لو كان ما تدعيـه الشـيعة في مذاهب الصادق والباقر حقا لـوجب أن نعلمـه كمـا علمـوه، ويزول الخلاف فيه منا كمـا علمت الشـيعة بمـذاهب سـلفنا من أبي حنيفة والشافعي وغيرهما ممن تقـدمهما، قلنـا: ليس يجب أن يعلم الأجانب والأباعد من مذاهب العـالم مـا يعلمـه أصـحابه وخلصاؤه وملازموه ومؤانسوه، ولهذا لا نعلم كثـيرا من مـذاهب أبي حنيفة ممـا يعلمـه أصـحابه والمنتمـون إليـه فمن هـو أخص بالبـاقر والصـادق عليـه السـلام من أصـحابهما وشـيعتهما أعلم بمذاهبهما ممن ليسـت لـه هـذه الصـفة معهمـا عليهمـا السـلام على أنا لا نعلم كثيرا من المذاهب التي يدعيها مخالفونـا مـذهبا لأمير المؤمنين صلوات الله عليه وتروى عنه، وتحكي خلاف مـا يروون وضد ما يحكمون، فعذرهم في أنا لا نعلم ذلك هو عـذرنا في أن لم يعلمـوا المـذاهب الـتي تـدعيها ونحكيهـا عن أمـير المؤمنين وعلماء أبنائه صلوات الله عليهم، فليعتذروا بمـا شـاؤا ثم نقول لهم: كيف علمنا صـحة مـا يحكونـه مـذهبا لأبي حنيفـة وللشـافعي ولم نعلم ذلـك في كـل مـا يدعونـه مـذهبا لامـير المؤمنين صلوات الله عليه ففرقكم بين الأمرين هـو فرقنـا بين العلم العـام بمـذاهب أبي حنيفـة وأمثالـه، ووقـوع الاشـتباه في كثير من مذاهب أئمتنا عليهم السلام، وبعد فليس يجري مذاهب من قولـه حجـة في العلم بهـا مجـرى مـذاهب من ليس قولـه بحجة، ولهذا لانعرف بمذاهب النبي صلى الله عليـه وآلـه وأهـل بيته في كثـير من أحكـام الشـريعة كمـا نعلم مـذاهب كثـير من أصحابه فيها، وكما نعلم مذاهب أبي حنيفة والشـافعي في تلـك المسائل، والعلة في ذلك ما أشرنا إليه)(1)

1() الا نتصار (3/ 6)

انطلاقا من هذا فإن الفقـه المقاصـدي لا يمكنـه أن يـؤدي غرضه في البحث عن الحلول للمشكلات المختلفة التي تعترض حياتنا الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصـادية وغيرهـا، وهـو يعزل هذا المكون الكبير من مكونات الأمة.

وقـد أقـر بهـذا كبـار العلمـاء المحققين من المعاصـرين، والذين اضطروا لأن يأخذوا بأقوال الشيعة في مسائل مهمة لها صلتها الكبرى بتحقيق مقاصد الشريعة.

ومن الأمثلة على ذلك ما أفتى به الكثـير من المعاصـرين ـ لتضـييق دائـرة الطلاق، والحفـاظ على الأسـرة ــ من اشـتراط الإشهاد لوقوع الطلاق.

وقد ذكر محمد عبده هـذا، وبين مصـدره الشـيعي محترمـا له، فقال: (فلم لا يجوز ومع ظهور الفساد في الأخلاق والضعف في العقول وعدم المبالاة بالمقاصد، أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من أن الاستشهاد شرط في صحة الطلاق كما هو شرط صــحة الزواج، كما ذكره الطبرسي، وكما تشير الآية في سورة الطلاق حيث جـاء في آخرهـا: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: 2] ؟. أليس هذا أمرا صريحا بالاستشهاد يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعـــة وإمســـاك وفـــراق ؟ لم لا نقـــرر أن وجـــود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا، فيمتنع بهذه الطريقة هـذا النـوع الكثـير الوقـوع من الطلاق الـذي يقـع الآن بكلمة خرجت على غير قصد ولا روية في وقت غضــب ؟.. نظن أن في الأخــذ بهــذا الحكم موافقــة لآيــة من كتــاب اللــه ورعاية لمصالح الناس، وما يـدرينا أن اللـه سـبحانه وتعـالى قـد اطلع على ما تصل إليه الأمة في زمان كزماننا هذا، فأنزل تلــك الآية الكريمة لتكون نظاما نرجع إليها عند مسـيس الحاجـة كمـا هو شأننا اليوم)[1]

ومثله الكثير من الأعلام الكبار في العصر الحديث، وخاصة من رواد التقـريب بين المـذاهب الإسـلامية، فقـد أخـذ الشـيخ محمد الغزالي بهذا القـول، ودعـا من خلالـه إلى الاسـتفادة من

[1] محمد عبده الأعمال الكاملة المجلد الثاني ص 122 – 123.

الآراء الموجـــودة في جميـــع المـــدارس الإســـلامية، فقـــال: (وأســتطيع أن أضــم إلى ذلــك رفض الطلاق الــذي ليس عليــه إشهاد، فالشاهدان لابـد منهمـا لقبـول العقـد والرجعـة والطلاق على سـواء وخـير لنـا نحن المسـلمين أن تقتبس من تراثنـا مـا يصون مجتمعنا ويحميه من نزوات الأفـراد. أمـا الزهـد في هـذا التراث كلـه فهـو الـذي فتح الطريـق لمحـاولات تنصـير قـوانين الأسرة)(1)

وقـد قـال في موضـع آخـر: (ولقـد رأيت أن أقـوم بعمـل إيجابي حاسم سدا لهذه الفجوة التي صنعتها الأوهام، فرأيت أن تتولى وزارة الأوقاف ضم المذهب الفقهي للشيعة الإمامية إلى فقـه المـذاهب الأربعـة، وسـتتولى إدارة الثقافـة تقـديم أبـواب العبادات والمعـاملات فى هـذا الفقـه الإسـلامي لمجتهـدين من إخواننا الشيعة، وسيرى أولو الألباب عنـد مطالعـة هـذه الجهـود العلمية أن الشبه قريب بين ما ألفنـا من قـراءات فقهيـة، وبين ما باعدتنا عنه الأحداث السيئة)(2)

ومنهم داعية الوحـدة الكبـير الشـيخ (محمـد أبـو زهـرة)، والــذي يعــد من أكــبر علمــاء الشــريعة الإســلامية في عصــرنا الحديث، فقد وقف نفس الموقف، وكانت له آراؤه الكثيرة التي اعتـد فيهـا بـالخلاف الشـيعي، بـل اعتـبره، بـل رجحـه على مـا خالفه.

ومنهم الشـيخ السـيد سـابق الـذي ذكـر في كتابـه (فقـه السنة) الكثير من الأدلة على هـذا، ونقـل نقـولا كثـيرة من كتب الشيعة تؤيد هذا الرأي وتقويه.

هـذه مجـرد نمـاذج عن تعامـل المحققين من العلمـاء مـع المدرسة الشيعية، ومثله يقال مـع سـائر المـدارس الإسـلامية، لأنـــه لا يمكن أن نؤســـس للوحـــدة الإســـلامية، ونحن نتنـــابز بالألقاب، ويكفر بعضنا بعضا، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا

1() قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، ص 184..

2() كيف نفهم الإسلام، محمد الغزالي.

دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْـتَ مِنْهُمْ فِي شَـيْءٍ إِنَّمَـا أَمْـرُهُمْ إِلَى اللَّهِ
ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ [الأنعام: 159]

مهدي السنة.. ومهدي الشيعة

من القضـايا الـتي تثـار كثـيرا، وبأسـاليب متعـددة: قضـية المهدي، ووجوه الخلاف بين السنة والشيعة حوله.. وهل هو من نسل الحسن أو من نسل الحسين؟.. وهل هـو حي يـرزق، أو لا يزال لم تلده أمه بعد؟.. وهل سينشر عدله على الأرض جميعـا، أم أن عدله سيقتصر على بقعة محـدودة من الأرض، وفي زمن محدود؟.. وأشياء من هذا القبيل.

ومع أني من مدرسة تحاول أن تردم الفجوات بين مذاهب الأمة المختلفة، لتقرب بينها، وتحل الصفو بدل الكـدر، والمحبـة بـدل العـداوة إلا أنـني في هـذه المسـألة خصوصـا أذهب خلاف ذلـك المـذهب، لأني أرى من خلال تـأملي في الواقـع الفكـري والمادي للسنة والشيعة، وتعاملهما مع هذه المسـألة أن الفـرق بينهما جوهري، وليس عرضيا، حـتى كـأن مهـدي الشـيعة كـائن مختلـف تمامـا عن مهـدي السـنة، وإن كـان اسـمهما ولقبهمـا ودورهما واحد في نظر كليهما.

وقبـل أن أشـرح وجهـة نظـري هـذه أحب أن أورد حكايـة بسيطة معروفـة قـد تسـاهم في توضـيح الفـرق بين نظـرة كلا المدرستين لهذه الشخصية التي تكاد تكون محـل اتفـاق بينهمـا من حيث الشكل، وإن كانت تختلف بينهما من حيث المضمون.

والقصة هي قصة نيـوتن مـع التفاحـة، والـتي جلب انتباهـه سقوطها إلى الأرض، وعدم سقوطها في جهة أخـرى غـير جهـة الأرض، وقد أوحى له ذلك الاهتمام والتساؤلات الـتي جرهـا إلى اكتشاف قـوانين الجاذبيـة، وقـوانين أخـرى سـاهمت في نشـأة الفيزياء المرتبطة بنيوتن وتفاحته، والتي ساهمت بعـد ذلـك في الثورة الصـناعية الكـبرى، والـتي اسـتطاعت بعـد ذلـك كلـه أن تخـرج أوروبـا من عصـور التخلـف لـتزج بهـا في عصـر النهضـة الحديثة.. ولا تزال أوروبا والعالم أجمـع ينعمـان ببركـات تفاحـة نيوتن إلى يوم الناس هذا.

من فهم هذه القصة يمكن أن نتصور الفرق الأساسي بين مهدي السنة ومهدي الشيعة.. فمهدي السنة ليس سوى تفاحة بسيطة سقطت في يوم من الأيام من أعلى الشجرة، فاختلطت بتراب الأرض، ولم يبق لها وجود ولا قيمة ولا أي تأثير عدا تنعم أفراد النمل التي أحاطت بها، وتغذت بها أياما معدودة.

أما مهدي الشيعة، فعكس ذلك تماما، لأنه مشروع كامل للإنسان يدخل في جميع أجزاء حياته، فبركات المهدي عند الشيعة لا يتنعم بها أهل عصره فقط، بل تتنعم بها كل العصور، لأنه يعيش في كل العصور.. ولذلك نجد من ألقابه عندهم [إمام العصر والزمان]

فهو عندهم أشبه بالشمس التي حجبها الغمام، فهم يتنعمون بها من خلف الغمام، ويعملون كل جهدهم ليزيحوا ذلك الغمام لتبدو الشمس منيرة للعالم كله، فتحجب بطلعتها البهية كل ظلمة، وتزيل كل عناء، وترفع كل جور.

مهدي السنة نبوءة تاريخية، تتعلق بفرد من الناس يظهر في زمن من الأزمنة ليتنعم بعدالته من عايشوه.. أما مهدي الشيعة فحياته ممتدة في جميع الأجيال، لأن دوره فيها جميعا هو استنهاض الهمم لتشكيل الإنسان الكامل، والمجتمع العادل، والمدنية الفاضلة.

قد يضحك السنة ملء أفواههم على مهدي الشيعة المخبأ في السرداب كما يتصورون.. وكذلك يضحك الشيعة على مهدي السنة الذي لا يكاد يوجد، وإذا وجد لا يكاد يؤثر، فلا أحد من الناس يتحدث عنه، ولذلك فإن سراديب النسيان والغفلة التي أودع السنة مهديهم فيها أخطر من كل ألوان السراديب.

في كل صباح يتمثل الشيعي إمامه المهدي الغائب، ويمد يديه وروحه له بالبيعة قائلا: (اللهم إني أجدد له في صبيحة يومي هذا وما عشت من أيامي عهدا وعقدا وبيعة له في عنقي، لا أحول عنها ولا أزول أبدا، اللهم اجعلني من أنصاره

وأعوانه والذابين عنه والمسارعين إليه في قضاء حوائجه، والممتثلين لأوامره والمحامين عنه، والسابقين إلى إرادته والمستشهدين بين يديه) وهو بذلك يهيء نفسه بهذا الدعاء لنصرة المهدي إن ظهر، ويهيء نفسه للتحضير لظهوره إن طال غيابه.

بينما لا يجد السني أي مهدي يمد يده إليه، فلذلك قد تمتد يده بالبيعة لأي دجال من الدجاجلة، أو مستبد من المستبدين، أو ظالم من الظلمة، أو حتى مشعوذ من المشعوذين، ولهذا لا نستغرب أن يكثر ادعاء المهدوية في المدرسة السنية، بينما لا يتجرؤون على ادعائها في المدرسة الشيعية.

ولا يكتفي الشيعي بمد يديه بالبيعة لإمامه المنتظر، وإنما يتمثل في كل صباح، بل في كل لحظة مشروع الحكومة الإلهية التي يمثلها ويحملها إمامه المهدي، فيقول بكل أشواقه: (اظهر اللهم لنا وليك وابن بنت نبيك المسمى باسم رسولك حتى لا يظفر بشيء من الباطل إلا مزقه، ويحق الحق ويحققه، واجعله اللهم مفزعا لمظلوم عبادك، وناصرا لمن لا يجد له ناصرا غيرك، ومجددا لما عطل من أحكام كتابك، ومشيدا لما ورد من أعلام دينك وسنن نبيك صلى الله عليه وآله)، فهذا الدعاء مشروع متكامل يلخص الدور الرسالي الذي يقوم به المهدي في نظر الشيعي، بينما لا يجد أخوه السني أمامه أي دعاء من هذا النوع، فيستسلم لكل التوجهات والحركات والتيارات التي تحمل مشاريع ممتلئة بالتناقض..

بالإضافة إلى هذه الفروق، فإن هناك فرقا نفسيا خطيرا لا يقل أهمية عما سبق، وهو مرتبط بالأمل، أو بما يسميه الشيعة انتظار الفرج، ولهذا يقولون عند ذكر مهديهم: (اللهم عجل فرجه الشريف)، وهم يقصدون فرجهم، وفرج الأمة جميعا، لأن علامة فرج الأمة ـ كما اتفق عليه الفريقان ــ هو ظهور هذا الإمام، وهم موقنون بهذا الفرج، لأنهم يرون حياة صاحبه، ولهذا إذا أصاب الشيعي أي مكروه، أو رأى أي انحراف، لا يحزن ولا يتألم لأنه يعلم أن الفرج قريب، وأن إمامه حاضر، وأنه لا

يفصـله عن تحقيـق مشـروعه إلا بعض الـزمن القصـير.. أمـا السني فلا يجد لتفريج كربه أي أمل.. لأن الذين رسموا له نهاية التاريخ رسموها بصورة مشؤومة ممتلئة بالكآبة والإحباط، فأيام المهدي أيام معدودة، ومشروعه ليس سوى فلتة من الـزمن، لا علاقة لها بالماضي، ولا بالمستقبل.

هـذه خلاصـة الفـروق بين مهـدي السـنة ومهـدي الشـيعة، ولهذا استطاع الشيعة أن يشكلوا مشروعهم الكبير، وأن يتمـدد مشـروعهم في العـالم أجمـع.. بينمـا وقـف السـنة ضـاحكين سـاخرين.. ولكن بلا مشـروع، ولا هويـة، ولا مجـرد بصـيص من الأمل يحققون به ما يحلمون به من نصر الله.

فلـذلك هم يحتـاجون إلى القيـام بتعـديلات جوهريـة حـول النظـر لمهـديهم، ويخرجـوه من سـراديب الغفلـة والنسـيان والإعـراض الـتي وضـعوه فيهـا، ويخرجـوا أنفسـهم من الصـراع على الزعامات التي شتتتهم وفرقت صفهم.

وإن كـان لهم بعض التواضـع، فأنصـحهم أن يتعـالوا عن الخلافات الفرعية الـتي تفـرق بينهم وبين إخـوانهم من الشـيعة في هذا المجال، فيجعلوا لمهديهم وجودا ولـو رمزيـا في أذهـان الناس ومشاعرهم، وسيرون كيف يلتف النـاس حـولهم، وكيـف ينهضون، لأن من طبيعـة البشـر ألا يستسـلم إلا للمقـدس، وألا يخضـع إلا للمعصـوم.. ومـا دامـوا يدنسـون مهـديهم بالاحتقـار والإعراض، فإن جزاءهم سيكون الاحتقار والإعراض.

الفكرة والعقيدة

من المسائل المهمة التي نحتاج إلى التعرف عليها لارتباطها بحياتنا بجميع مجالاتها ومساراتها التمييز بين ما نفكر فيه، وبين ما نعتقده، فليس كل ما نفكر فيه عقيدة.. وليس كل عقيدة نؤمن بها قد تكون منطلقة من فكر وبحث وتأمل.

وربما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 14]، فالآية الكريمة تشير إلى مرحلة من مراحل الإسلام، وهي الإذعان الفكري للقضايا للعقدية، وهو ما سماه القرآن الكريم في هذا المحل إسلاما، وفوقه درجة أعلى هي الإيمان، وهي الدرجة التي اصطلح الكثير ـ وخصوصا من المعاصرين ـ على تسميتها عقيدة، باعتبارها تنعقد في القلب وترسخ فيه رسوخا شديدا تجعله يعتبرها في سلوكه وجميع مواقفه.

وربما يشير إلى هذا المعنى أيضا قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: 7]، فمن أهم خصائص العقيدة الانفعال العاطفي لها، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بالحب.. ويتبعه ويسبقه التزيين.. لأن الفطرة لا تحب إلا للجميل، ويشير إلى هذا المعنى قوله ﷺ: (ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا)[1]

وأشار ﷺ إلى التأثير السلوكي للعقيدة في شخصية صاحبها، فقال: (قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل، فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه)[2]

بناء على هذه المعاني البديهية والمتفق عليها بين العقلاء،

---

[1] رواه مسلم.

[2] رواه البخاري.

أحب أن أجيب عن بعض الإشكالات التي طرحها بعض الفضلاء حول هذا الموضوع عند حديثي عن الفرق بين الفكرة الحية والفكرة الميتة، وعند حديثي عن مهدي السنة ومهدي الشيعة، وحتى يكون الكلام منتظما فسأقسمه إلى المحاور التالية:

الأول: أن مصطلحي [الفكرة، والعقيدة] لا يحملان في دلالتهما العامة أي مدح أو ذم، أو قبول أو رفض.. وهما بذلك يشبهان مصطلح [الخلق] الذي يصدق على الخلق الطيب، كما يصدق على الخلق الخبيث.. ولذلك فإننا عند حديثنا عن الفكرة الحية أو الميتة.. أو عن المهدي.. أو عن غيرها من القضايا لم نقصد بذلك تأييد ذلك المعتقد أو رفضه، وإنما قصدنا تبيين الفوارق العملية بين الفكرة الحية المؤثرة، والفكرة الميتة السلبية.. وقد دعونا إلى النظر في هذا من هذه الزاوية، أما الأدلة المثبتة أو النافية، فلها محلها الخاص في كتب العقائد، أو في كتب الملل والنحل.. وهي ليست مقصودنا بالدرجة الأولى.

الثاني: أن لاعتقاد الحياة بأي معنى من المعاني في القضية المطروحة تأثيره النفسي الكبير في تحويل الفكرة من مجرد كونها فكرة لا تحتل سوى محلا بسيطا من الذهن إلى عقيدة لها تأثيرها الكبير والفاعل في الحياة..

وقد رأيت هذا من خلال صحبتي للطرق الصوفية، والتي يعتقد أصحابها اعتقادا راسخا في حياة النبي ﷺ، وكون الحياة لا تخلو منه.. ولذلك نراهم يستشعرون وجوده وحضوره التام.. وهم لأجل ذلك يتوسلون به، ويخاطبونه نثرا وشعرا، ويتغنون بجماله وجلاله.. ويرونه كثيرا في الرؤى.. وبعضهم يذكر ـ لشدة محبته وشوقه ـ أنه يراه في اليقظة.

وذلك غير مستغرب لمن يفهم الفرق بين الفكرة والعقيدة.. فصاحب العقيدة يعيش العجائب، ويرى العجائب، وقد قال أبو حامد الغزالي لبعض تلاميذه الذين تعجبوا من بعض ما ذكره في كتبه: (بالله إن تسر ترى العجائب)

فسلطان العقيدة لا يكتفي بالذهن المجرد، بل يتحول إلى

كل الكيان، فيملأه ثقة وحضورا وأشـواقا مـع القضـية العقديـة، ولهذا ورد في الحديث الذي اتفقت على روايته الأمة بفرقها أن النـبي ﷺ لقي رجلاً يقـال لـه حارثـة في بعض سـكك المدينـة فقال: (كيف أصبحت يا حارثة؟)، قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال: (إن لكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك؟) قال: عزفت نفسـي عن الـدنيا فأظمـأت نهـاري وأسـهرت ليلي وكـأني بعـرش ربي بارزاً وكأني بأهل الجنـة في الجنـة يتنعمـون فيهـا وكـأني بأهـل النار في النار يعذبون. فقال النبي ﷺ: (أصبت فالزم مؤمن نـور الله قلبه)(1)

ومثله حديث حنظلة الذي جـاء للنـبي ﷺ، وقـال لـه: نـافق حنظلة يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: (وما ذاك؟)، قال: يا رسول الله نكـون عنـدك تـذكرنا بالنـار والجنـة، حـتى كأنـا رأي عين، فإذا خرجنا من عنـدك عافسـنا الأزواج والأولاد والضـيعات نسينا كثيراً، فقال له رسول الله ﷺ: (والذي نفسي بيده؛ إن لـو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصـافحتكم الملائكـة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة)(2)

فالحـديث يشـير إلى هـذا البعـد الـذي ينكـره الكثـير على الصـوفية، ويسـخرون منهم بسـببه، والمشـكلة أن الـذي يعتقـد هذا، ويقر به، بل يقر بمـا هـو أكـثر منـه رجـل فيلسـوف متكلم اتفـق الكـل على مـدى قـوة عقلـه ورجاحتـه، أقصـد أبـا حامـد الغـزالي الـذي قـال بعـد صـحبته للصـوفية: ومن أول الطريقـة تبتـــدئ المكاشـــفات والمشـــاهدات، حـــتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتاً ويقتبســون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثـال، إلى درجات يضيق عنها النطق)(3)

ونفس الشيء يقال في تأثير اعتقاد الشيعة بحياة المهدي،

1() رواه البزار.

2() رواه مسلم.

3() المنقذ من الضلال (ص: 178)

فإن هذا الاعتقاد أكسبهم علاقة تفوق بكثير علاقة السنة بالمهدي، وهي علاقة تبدأ من التواصل الروحي معه، والاستفادة من ذلك في التربية والسلوك والترقي، وتنتهي بالتواصل الاجتماعي والسياسي، والذي أكسب المشروع السياسي الشيعي من القوة ما يفتقده المشروع السياسي السني، ذلك أن للأول عقيدته الحية الكبرى المؤثرة، وأما الثاني فليس له مثل تلك العقيدة.

وقد لقي الشيعة مثلما لقي إخوانهم من الصوفية الكثير من التهكم والسخرية، ولكنهم لم يتأثروا، ولم ينفعلوا، ولا أحدث فيهم ذلك أي نفور من عقيدتهم، مثل إخوانهم من الصوفية تماما، والذين يقولون كل حين مخاطبين المنكرين عليهم:

نحن قوم لانبالي بالملام	إن كتمنا الحبّ أبداه الغرام
لاتلمني ياعذولي إنّني	عبد رقّ بين سادات كرام
لا تلم عبد الهوى فيما جرى	في إهتزاز واضطراب واصطلام
كم محبّ زاده العذل فما	أبعد السّلوان عن أهل الغرام

وقد كان في إمكان المتهكمين لو كانوا صادقين مع أنفسهم ومع الحقيقة ومع الأدب مع الله أن يلتمسوا آلاف الأعذار لكل هذا، ولعل أدناها أن يتدبروا في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]

وقد ورد في الحديث ما يفسر هذا المعنى، وما يؤكد أن كل البشر أحياء من خرج منهم إلى الأرض، ومن لم يخرج، فقد قال ﷺ: (إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم، عليه السلام، بنعمان ـ يعني عرفة ـ فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، ثم

كلمهم قبلا قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]، وغيرها من الأحاديث، والتي لو طبقناها في هذا المجال لكان في ذلك عذرا لمن أراد الاعتذار.

بل أخبر ﷺأن نبوته كانت متحققة قبل ولادته بأزمان طويلة جدا، ففي الحديث الصحيح: (إني عند الله مكتوب: خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأخبركم بأول أمري: دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي التي رأت حين وضعتني، وقد خرج لها نور أضاءت لها منه قصور الشام)(1) ، وفي رواية: (متى كتبت نبيا؟) فقال ﷺ: (وآدم بين الروح والجسد)

ولهذا ورد في الروايات الكثيرة الواردة لدى الأمة بمختلف طوائفها أن الأنبياء كانوا يتوسلون به ﷺ، ولم يكونوا ليتوسلوا بمعدوم.

ولهذا، فإن في إمكان السنة ــ إن أرادوا تحويل عقيدتهم في المهدي إلى عقيدة فاعلة ــ أن يستشعروا هذا المعنى، ويعيشوه، وسيرون تأثيرهم في حياتهم بمختلف جوانبهم.

وطبعا لا أقول هذا الكلام لأوليك المتدينين تدينا ماديا، والذين لا يكادون يؤمنون بالغيب، وإنما أقوله للذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: 2، 3]، والذين لا يختلف الغيب عندهم عن الشهادة، ولا الملك عن الملكوت، فهم يعيشون في بحار الأنوار، ويغترفون من شرابها العذب ما يضيف لحياهم قوة وجمالا لا تضاهيه حياة المتدينين تدينا ماديا علمانيا لائكيا.

الثالث: أنه من خلال التجربة والواقع فإن إحياء المناسبات المختلفة، والمرتبطة بالفكرة تأثير كبير في تحويلها إلى عقيدة راسخة، ولهذا نرى الشعوب بمختلف توجهاتها الدينية تتذكر تاريخها وتحيي المناسبا المختلفة المرتبطة به،

1() رواه أحمد، وقال: صحيح الإسناد، وصححه الألباني في شرح السنة -مشكاة المصابيح - (3 /251، 5759)

وذلك لترسخ الاعتقاد بالوطنية في نفوس أفرادها.

وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5]، ففي الآية الكريمة إشارة إلى ما يحدثه التذكير بأيام الله في النفوس من الصبر والشكر، والصبر هو تحمل الفكرة وعدم الضجر منها، والشكر هو تحويل الفكرة إلى مادة فاعلة مؤثر في الحياة بمختلف مجالاتها.

ولأجل هذا نرى اهتمام الصوفية بميلاد النبي ﷺ، والذي يبدأ إحياءهم له من أول ربيع الأول، بل يحضرون له قبل ذلك بفترة طويلة.. ولهذا نرى في المجتمعات الصوفية الصادقة تأثير تلك المناسبات في ربط القلوب برسول الله عاطفيا ووجدانيا.

ونفس الشيء يقال عن اهتمام الشيعة بموالد الأئمة من آل البيت، والمآسي التي حصلت لهم.. فقد دمجت حياة الشيعي بسبب ذلك بالأئمة والأولياء والصالحين، فهو في كل حين يسمع أخبارهم، ويعيش أفراحهم وأحزانهم، ويتأثر لكل ذلك، وذلك ما يحول علاقته بآل البيت من علاقة ميتة إلى علاقة حية مؤثرة.

الرابع: أن من الأدب الذي علمنا إياه القرآن الكريم، والذي يشير إليه قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبأ: 25]، أن صاحب العقيدة في تعامله مع المخالف، أو في حواره معه، لا يطرح عقيدته كعقيدة، ويتعصب لها، وإنما يطرحها كفكرة يمكن أن تناقش، فلهذا تأثيره الكبير في الطرح العلمي والموضوعي للقضية والانتصار لها، بخلاف الذي يطرح أفكاره، ومعها روائح التعصب لها، فالبشر في العادة ينفرون من التعصب، وينفرون ممن يريد أن يكرههم على شيء من غير المنهج الصحيح.

وهذا المعنى هو الذي ييشير إليه قوله تعالى في بيان

منهج الدعوة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: 125]

وهو الذي يشير إليه سلوك رسول الله ﷺفي دعوته لهذه الأمة، والذي أثنى عليه قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: 159]

فليس من السهل لشخص ممتلئ بالمادية أن تقنعه بحياة رسول الله ﷺ، أو بحياة غيره.. فلذلك تحتاج الى طرح القضية له كفكرة، وليس كعقيدة.

ومن هذا الباب كان عتابي لبعض إخواني من الصوفية أو من الشيعة على تلك الطروحات التي لا تراعي قدرات الناس، ولا المراحل الفكرية التي يمرون بها.. ولو أنهم طرحوا أفكارهم بهدوء ورحمة وموضوعية لكانت أكثر قبولا، وأبعد عن اللجاج والخصومة.. فلا خير في اللجاج والخصومة.

عرض رسول الله.. والمبتدعة الجدد

ما كنت أظن أن هذه الأمة التي تسـمي نفسـها دون الأمم بالأمة المرحومة تتجرأ في يوم من الأيام على استخدام عــرض رسولها ﷺ وسيلة للحرب وتنفيس الأحقاد وإثارة الفتن.

فعرض رسول الله ﷺ على مدار التـاريخ فـوق الشـبهات، وفوق أن يتحدث عنه أحـد، وفـوق أن يـذكر في المجـالس، بـل فـوق أن يخطـر على بـال المنـافقين والفاسـقين والحاقـدين.. ولهذا لم نجد الشهرستاني ولا البغدادي ولا ابن حزم ولا كل من تكلم في الفرق يشير إلى هذا، ولا يومئ إليه، لأن الأمـة جميعـا كمـا اتفقت على عصـمة رسـول اللـه ﷺاتفقت على عصـمة عرضه، لأن عرض المرء شـرفه وكرامتـه، ومن تعـرض لعـرض امرئ فقد أهانه أبشع إهانة وسبه أبلغ سبة.

لكن المبتدعــة الجــدد بعــد أن اســتعملوا كــل وســائلهم الحاقـدة أغـراهم الشـيطان أن يرفعـوا على رؤوس الرمـاح مـا يسمونه الدفاع عن عرض رسول الله ﷺ.

وليت الأمـر اقتصـر على المجـالس المحـدودة، والكلمـات المهموسة.. بل تعداه إلى وسـائل الإعلام الـتي تنشـر سـمومها وأريجها في جميع أنحاء العالم.. واختلـف المسـلمون لأول مـرة في التاريخ.. وأمام سمع العالم وبصره حول عرض رسول اللــه ﷺ.. وهل كان مبرأ، أو كان مخدوشا؟

والمبتدعة الجدد صنفان من الناس، نعوذ بالله من شـرهما وحقدهما ونارهما في الدنيا والآخرة:

الفريق الأول:

أمــا **الفريــق الأول**: فيمثلــه دعــاة التشــيع البريطــاني والأمــريكي، والــذين اتخــذوا من لنــدن وواشــنطن ملاذا لنشــر الفتنــة في الأمــة، فهـؤلاء راحـوا عـبر قنـواتهم الفضـائية الـتي تــديريها مخــابرات الاســتكبار العــالمي ينشــرون أمثــال هــذه

التراهات ليملأوا أرض المسلمين بالفتن، ويحققوا من وراء ذلك صراعا داخليا يمكنهم بعد ذلك من تقسيم المقسم، وتجزئة المجزأ، من غير أن يصرفوا دينارا ولا درهما.

وهؤلاء المبتدعة يكذبون أعظم كذبة حين يزعمون لأنفسهم التشيع لآل بيت رسول الله ﷺ، فهم أبعد الناس عنه وعن بيته ﷺ.. فبيته بيت الطهارة والنبل والسماحة، ولا يشايعه إلا الطاهرون النبلاء المتسامحون.. ولو أن هؤلاء قرأوا سير أهل البيت، وكيف كانوا يتعاملون مع خصومهم لطأطأوا رؤوسهم خجلا، ولاستحوا أن ينتسبوا لهم، أو يشوهوهم بانتسابهم إليهم.

فالتشيع لآل بيت النبوة ليس دعوى، وإنما هو أخلاق نبيلة طاهرة.. وقد روي عن الباقر قوله مخاطبا بعض أدعياء التشيع: (إنّما شيعة عليّ الشاحبون الناحلون الذابلون، ذابلة شفاههم، خميصة بطونهم، متغيّرة ألوانهم، مصفرّة وجوههم، إذا جنّهم الليل اتّخذوا الأرض فراشاً، واستقبلوا الأرض بجباههم، كثيرٌ سجودهم، كثيرةٌ دموعهم، كثيرٌ دعاؤهم، كثيرٌ بكاؤهم، يفرح الناس وهم محزونون)[1]

بل قسم الصادق أصناف الشيعة، فقال: (الشيعة ثلاث: محبٌّ وادٌّ فهو منّا، ومتزيّنٌ بنا ونحن زين لمَن تزيّن بنا، ومستأكلٌ بنا الناس ومَن استأكل بنا افتقر)[2]

وهذا القسم الأخير هو الذي يصدق عليه حال هؤلاء.. فهم شيعة تجار، يزرعون بذر الفتنة في الأمة ليحصدوا بها دنيا زائلة.. ولا صلة لهم لا بمحمد ولا بآل محمد ﷺ.

بل ورد في الروايات عن أئمة أهل البيت ما يصور حال هؤلاء، فقد روي أنه قيل للكاظم: مررنا برجل في السوق وهو ينادي: أنا من شيعة محمّد وآل محمّد الخُلّص، وهو ينادي على ثياب يبيعها: مَن يزيد ؟.. فقال الكاظم: (ما جهل ولا ضاع امرؤ

---

[1] () الخصال 2/58.

[2] () الخصال 1/51.

عرف قدر نفسه، أتدرون ما مَثَل هذا ؟.. هذا شخص قال: أنا مثْل سلمان وأبي ذرّ والمقداد وعمّار، وهو مع ذلك يباخس في بيعه، ويدلّس عيوب المبيع على مشتريه، ويشتري الشيء بثمن فيزايد الغريب يطلبه فيوجب له، ثمّ إذا غاب المشتري قال: لا أُريده إلاّ بكذا بدون ما كان طلبه منه.. أيكون هذا كسلمان وأبي ذرّ والمقداد وعمّار ؟.. حاش لله أن يكون هذا كَهُم، ولكن ما يمنعه من أن يقول: إنّي من محبّي محمّد وآل محمّد، ومَن يوالي أولياءهم ويُعادي أعداءهم ؟

ومثل ذلك قول الإمام الرضا لمن ادعوا هذه المرتبة الرفيعة من غير تحقيق ولا أدب، فقد قال لهم: (ويحكم !.. إنّما شيعته الحسن والحسين وأبو ذرّ وسلمان والمقداد وعمّار ومحمد بن أبي بكر، الذين لم يخالفوا شيئاً من أوامره، ولم يركبوا شيئاً من فنون زواجره، فأمّا أنتم إذا قلتم إنّكم شيعته، وأنتم في أكثر أعمالكم له مخالفون مقصّرون في كثير من الفرائض، متهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، وتتّقون حيث لا يجب التقيّة، وتتركون التقيّة حيث لا بدّ من التقيّة، فلو قلتم أنّكم موالوه ومحبّوه، والموالون لأوليائه، والمعادون لأعدائه، لم أُنكره من قولكم، ولكن هذه مرتبة شريفة ادّعيتموها، إن لم تصدّقوا قولكم بفعلكم هلكتم إلاّ أن تتداركَكم رحمةٌ من ربّكم)

وغيرها من الروايات الكثيرة الواردة عن جميع أئمة أهل البيت.. فكلهم كانوا يدعون أتباعهم ومشايعيهم إلى ما دعا إليه الصادق حين قال: (معاشر الشيعة !..كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حسناً، واحفظوا ألسنتكم وكفّوها عن الفضول، وقُبح القول)(1)

ولو أن هؤلاء الأدعياء رجعوا إلى سيرة إمامهم الذي يزعمون أنهم يشايعونه، ورأوا سيرته مع أم المؤمنين عائشة، واقتدوا به في ذلك، لما فعلوا ما فعلوه من التشهير بها، والإذية لها، ولرسول الله ﷺ.

1() أمالي الطوسي 2/55.

فقد روي في المصادر المعتبرة عند الشيعة أنفسهم أن عليا بعد انتصاره في معركة الجمل لم يسئ إليها ولم يؤذها، بل ردها مكرمة إلى بيتها، بعد أن عاتبها على خروجها الذي سبب فتنة للمسلمين، والذي ندمت عليه بعد ذلك ندما شديدا، وباتفاق الأمة جميعا سنتهم وشيعتهم، فقد قال الذهبي: (روى إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس قال: قالت عائشة وكانت تحدث نفسها أن تدفن في بيتها، فقالت: إني أحدثت بعد رسول الله ﷺحدثا، ادفنوني مع أزواجه فدفنت بالبقيع)، ثم علق على ذلك بقوله: (تعني بالحدث: مسيرها يوم الجمل؛ فإنها ندمت ندامة كلية وتابت من ذلك، على أنها ما فعلت ذلك إلا متأولة قاصدة للخير، كما اجتهد طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وجماعة من الكبار)(1)

وقال الزيلعي: (وأجمعوا على أن عليا كان مصيبا في قتال أهل الجمل، وهم طلحة، والزبير، وعائشة، ومن معهم، وأهل صفين، وهم معاوية، وعسكره، وقد أظهرت عائشة الندم، كما أخرجه ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب عن ابن أبي عتيق، وهو عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، قال: قالت عائشة لابن عمر: يا أبا عبد الرحمن، ما منعك أن تنهاني عن مسيري؟! قال: رأيت رجلا غلب عليك - يعني ابن الزبير- فقالت: أما والله لو نهيتني ما خرجت)(2)

بل إن الألباني ـ والذي يزعم الفريق الثاني من المبتدعة الجدد أنهم شيعة له ـ يقول بعد ذكره لحديث الحوأب: (وجملة القول أن الحديث صحيح الإسناد، ولا إشكال في متنه.. فإن غاية ما فيه أن عائشة لما علمت بالحوأب كان عليها أن ترجع، والحديث يدل أنها لم ترجع! وهذا مما لا يليق أن ينسب لأم المؤمنين. وجوابنا على ذلك أنه ليس كل ما يقع من الكمل يكون لائقا بهم، إذ لا عصمة إلا لله وحده. والسني لا ينبغي له أن يغالي فيمن يحترمه حتى يرفعه إلى مصاف الأئمة الشيعة

1() سير أعلام النبلاء: 3/ 462.

2() نصب الراية (4/ 69)

المعصومين! ولا نشك أن خروج أم المؤمنين كان خطأ من أصله، ولذلك همت بالرجوع حين علمت بتحقق نبوءة النبي ﷺعند الحوأب، ولكن الزبير أقنعها بترك الرجوع بقوله: (عسى الله أن يصلح بك بين الناس) ولا نشك أنه كان مخطئا في ذلك أيضا. والعقل يقطع بأنه لا مناص من القول بتخطئة إحدى الطائفتين المتقاتلتين اللتين وقع فيهما مئات القتلى. ولا شك أن عائشة المخطئة لأسباب كثيرة، وأدلة واضحة، ومنها ندمها على خروجها، وذلك هو اللائق بفضلها وكمالها، وذلك مما يدل على أن خطأها من الخطأ المغفور بل المأجور)[1]

بعد هذا، فلو أن هذا الفريق من المبتدعة الجدد ــ بعد تقصيرهم في حق أئمتهم الذين يزعمون لأنفسهم الانتساب لهم - أعطوا مراجعهم وعلماءهم الذين أمروا بالرجوع إليهم حقهم من الاحترام، لتوقفوا عن تلك الجرأة العظيمة التي واجهوا بها نبيهم، وأثاروا الفتنة بسببها في أمته.

فكل مراجع الشيعة الكبار، وعلى مدار التاريخ، احترموا عرض رسول الله ﷺ، بل احترموا عرض جميع الأنبياء، بل اعتبروا من عصمة النبي عصمة عرضه، ولذلك لم يسيئوا لرسول الله ﷺ في عرضه، حتى لو اختلفوا مع بعض أمهات المؤمنين بسبب حربهم للإمام علي.. لأن أمهات المؤمنين وإن عصموا في أعراضهم بسبب ارتباطهم بالمعصوم إلا أنهم ليسوا معصومين فيما عدا ذلك، وقد نص القرآن الكريم على ذلك، بل ذكر أن من نساء الأنبياء من وقع في الكفر ذاته.. وفرق كبير بين الكفر والفاحشة.. فالفاحشة ترتبط بعرض النبي، بخلاف الكفر وغيره، فلا علاقة لذلك بعرض النبي.. بل إن القرآن الكريم ذكر أن أبناء الأنبياء أنفسهم ليسوا معصومين من الكفر، وقد قص علينا من قصة ابن نوح عليه السلام ما يثبت ذلك، وقص علينا من أمر امرأة نوح ولوط ما يدل على ذلك أيضا.

ولا بأس أن نورد هنا للمبتدعة الجدد بفريقيهم كلام علم من أعلام الشيعة الكبار كنموذج عن موقف مراجع الشيعة من

---

[1] نصب الراية (4 / 69 - 70)

هذه البدعة الحادثة، والنماذج على ذلك أكثر من أن تحصر.

وهذا النموذج هو العلامة السيد شرف الدين الموسوي، وهو من أعلام الشيعة الكبار في هذا العصر، فقد قال في أجوبة مسائل جار الله: (من الوجوه التي اعتمد عليها الناصب موسى جار الله في تكفير الشيعة الإمامية أنهم يطولون ألسنتهم على عائشة، ويتكلمون في حقها من أمر الافك والعياذ بالله ما لا يليق بشأنها.. إلى آخر افكه وبهتانه.. والجواب أنها عند الامامية، وفي نفس الأمر والواقع أنقى جيبا، وأطهر ثوبا وأعلى نفسا وأغلى عرضا وامنع صوتا وارفع جنابا وأعز خدرا واسمى مقاما من أن يجوز عليها غير النزاهة أو يمكن في حقها الا العفة والصيانة، وكتب الامامية قديمها وحديثها شاهد عدل بما أقول، على أن أصولهم في عصمة الانبياء تحيل ما بهتها به أهل الافك بتاتا، وقواعدهم تمنع وقوعه عقلا ولذا صرح فقيه الطائفة وثقتها أستاذنا المقدس الشيخ محمد طه النجفي أعلى الله مقامه بما يستقل بحكمه العقل من وجوب نزاهة الأنبياء عن أقل عائبة ولزوم طهارة أعراضهم عن أدنى وصمة، فنحن والله لا نحتاج في براءتها الى دليل، ولا نجوز عليها ولا على غيرها من أزواج الأنبياء والأوصياء كل ما كان من هذا القبيل)

ثم نقل عن الشريف المرتضى علم الهدى ردا على من نسب الخنا الى امرأة نوح ـ كما يقول بذلك ابن تيمية نفسه ــ : (إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يجب عقلا ان ينزهوا عن مثل هذه الحال لأنها تعر وتشين وتغض من القدر، وقد جنب الله تعالى أنبياءه عليهم الصلاة والسلام ما هو دون ذلك تعظيما لهم وتوقيرا لكل ما ينفر عن القبول منهم)

ثم نقل الإجماع على ذلك، فقال: (وعلى ذلك اجماع مفسري الشيعة ومتكلميهم وسائر علمائهم)

ثم بين موضع انتقاد الشيعة لها، وهو مما يتفقون فيه مع السنة، فقال: (نعم ننتقد من أفعال أم المؤمنين خروجها من بيتها بعد قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: 33] وركوبها الجمل بعد تحذيرها من ذلك ومجيئها الى البصرة تقود

جيشا عرمرما تطلب على زعمها بدم عثمان، وهي التي أمـالت حربه وألبت عليه وقالت فيه ما قالت، ونلومها على أفعالهـا في البصرة يوم الجمل الأصغر مع عثمان بن حنيف وحكيم بن جبلة ونستنكر أعمالها يـوم الجمـل الأكـبر مـع أمـير المؤمـنين ويـوم البغل حيث ظنت أن بني هاشم يريـدون دفن الحسـن المجتـبى عند جده ﷺ فكان ما كان منها ومن مروان، بل نعتب عليهـا في سائر سيرتها مع سائر أهل البيت عليهم السلام)

وهذا الذي قاله شـرف الـدين الموسـوي هـو نفسـه الـذي تنص عليه كل المراجع الشيعية المعتمدة.. أما الروايات الباطلة الــتي اعتمــدها عليهــا المغرضــون فهي مرفوضــة من جميــع المراجع لمعارضتها العقل والفطرة والقرآن الكريم.

وبعد أن ظهـرت هـذه الفريـة في وسـائل الإعلام، وتبناهـا هـؤلاء المبتدعـة من الشـيعة قـام أعلام الشـيعة الكبـار بـردود مفصلة، وفي القنوات الفضائية المختلفة، ومنهم العلامة السـيد كمال الحيدري، الذي تكلم مفصلا عن هـذه القضـية في حينهـا، ففي شرحه لحديث الثقلين سندا ودلالة قال مـا نصـه: (الفريـة الأخـرى الـتي يحـاولون في الآونـة الأخـيرة أن يلصـقوها باتبـاع وعلماء مدرسة أهـل الـبيت أن يقولـون أن هـؤلاء يطعنـون في عرض النبي الأكرم ﷺ بعبارة أخرى يقولون أن الشيعة يطعنون في أزواج النبي ﷺ... ولا ينبغي لأحد ولا يصح من أحــد أن يتكلم بأي أمر يسيء أو يهين أزواج النبي الأكرم ﷺ، ولا أقل للقاعــدة التي نحن تعلمناها (ألف عين لأجـل عين تكـرم) لمـا كُنَّ هـؤلاء أزواج النبي فلا يمكن أن نشـير إليهن أو نوجـه إليهن شـيء من الإهانة والإساءة فضلاً أن نطعن في عرض النـبي الأكـرم صـلى الله عليه وآله، يعني في عرض أزواج النـبي الأكـرم صـلى اللـه عليه وآلـه، هـذا ليس منهج علمـاء مدرسـة أهـل الـبيت، علمـاء مدرسة أهـل الـبيت كلهم يعتقـدون أن أزواج النـبي الأكـرم بـل أزواج جميع الأنبياء لا إشكال ولا شبهة أنه لا يصل إلى عرضــهن شيءٌ من السوء والفحشاء والمنكر.. هذه حقيقة لابد أن يلتفت إليها المشاهد الكريم ولا يستمع إلى بعض هذه الأصوات النشاز التي تخـرج على الفضـائيات وتنسـب نفسـها إلى مدرسـة أهـل

البيت، وأهل البيت منهم براء، ومدرسة أهل البيت منهم براء، هؤلاء لا يمثلون مدرسة أهل البيت، مجموعة من الجهلة وضعوا على رؤوسهم إما قطعة سواء أو بيضاء، وإلا فأنتم اذهبوا إلى حوزاتنا وكتبنا تجدون إصراراً من أكابر علمائنا على طهارة أعراض النبي صلى الله عليه وآله من أي فحشاء أو منكر)[1]

ثم أورد الكثير من النصوص عن المراجع الكبرى للشيعة، والتي تثبت براءتهم من ذلك الدجل الذي يبثه أدعياء التشيع الجدد.

وأحب أن أنبه هنا فقط إلى أن الروايات الواردة عن الشيعة في حادثة الإفك، وكونها مرتبطة بمارية القبط لا علاقة له باتهام عائشة، بل لو أننا تمعنا في الأمر، وتدبرناه بعقولنا لا بأهوائنا لوجدنا القول بذلك أكرم لعائشة، لأن هؤلاء الذين يتصورون أنهم يدافعون عن عرض رسول الله ﷺ يذكرون في رواياتهم التي يعتقدون صحتها أن رسول الله ﷺ راوده الشك في كون الأمر كما يذكر الأفاكون.. وفي ذلك تجويز لوقوع مثل هذا الأمر المستحيل في حق أزواج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

الفريق الثاني:

أما الفريق الثاني، فمبتدعة لا يقلون خطرا، ولا جفوة، ولا خفة عقل من مبتدعة الفريق الأول، فهم في جنونهم لا يختلفون عن ذلك الدب الذي أراد أن يذب الذباب عن وجه صاحبه، فأخذ صخرة فضرب بها رأسه، وقتله.

وهكذا يفعل هؤلاء المبتدعة بحجة حماية عرض رسول الله ﷺ.. فقد كان بإمكانهم بدل أن يشهروا هذا الأمر على جميع وسائل الإعلام، وبدل أن يظهروا على القنوات كل حين، يتكلمون بما يعف اللسان عن ذكره، أن ينزلوا ذلك الحديث على أنفسهم قبل أن ينزلوه على نبيهم.

فلو أن مغمورا من الناس تعرض لعرض أمهاتهم أو

[1]() القسم السادس بتاريخ 29 / 11 / 2011.

أخواتهم.. هل كانوا يعالجون المشكلة في حينها، وبكل الوسائل، ويحاولون التستر على القضية قدر الإمكان.. أم أنهم يذهبون إلى وسائل الإعلام كل حين، وهم يصيحون بغباء: أمهاتنا طاهرات لم يرتكبن الفاحشة.. ثم يتصورون أنهم يمدحون أمهاتهم بذلك.. وهل يمدح أحد بكونه لم يرتكب الفاحشة؟

ولو أنهم كانوا صادقين لكان في إمكانهم أن يقوموا بالمظاهرات والمسيرات لإغلاق القنوات التي تبث مثل هذه التهم الخطيرة، وهي قنوات تصدر من بريطانيا وأمريكا، وللأسف تبث من خلال قمر النايلسات الذي أخرجت منه قناة المنار، بحجة أنها قناة شيعية.. مع أن قناة المنار كانت من أول القنوات التي وقفت في وجه هذه الفتنة، بل طلع السيد حسن نصر الله نفسه ليرد على هذه الفرية العظيمة..

ولكن هؤلاء لكذبهم ودجلهم وتجارتهم بأمثال هذه الأمور، يتركون لهذه القناة وغيرها من قنوات الفتنة أن تبث، من دون اعتراض عليها، ولا دعوة لإيقافها.. بل يدعون لإيقاف القنوات المعتدلة التي يتحدث فيها العقلاء، ويتبرؤون من أمثال هذه الأمور التي تحدث فتنا في الأمة.

بعد هذا، فإني أتحدى هؤلاء إن كانوا صادقين حقا أن يقوموا بحركات احتجاجية واسعة ضد كل جهة تتخذ من عرض رسول الله ﷺ وسيلة للفتنة ولشق وحدة الأمة، وخاصة تلك القنوات التي تبث من بريطانيا وأمريكا..

فإن كانوا صادقين فليخرجوا لمطالبة إيقاف هذه القنوات التي لا تزال تبث سمومها كل حين..

ولكنهم لا يملكون من أمرهم شيئا.. لأن الذي يديرهم هو الذي يدير أمثال هذه القنوات لتأكل الأمة بعضها بعضا، وتجعل من عرض رسول الله ﷺ طعاما شهيا تلتذ به نفوسهم الشيطانية المملوءة بالأحقاد.

كلهن أمهات المؤمنين.. فلم التمييز؟

من النتـائج الخطـيرة لـذلك الحشـد الكبـير من التشـويه لعـرض رسـول اللـه ﷺ، - والـذي قـام بـه المبتدعـة الجـدد من أصحاب التشيع البدعي والسنة المذهبية، وتحت إشراف مباشر من شياطين الإنس والجن، وباستخدام كل الأساليب والوسـائل - ذلك التمييز العنصري بين أمهات المؤمنين، حتى صـار النـاس لا يسمعون إلا بعائشة، ولا يعرفون من زوجـات رسـول اللـه ﷺ غيرهـا، بـل وصـل الأمـر إلى أخطـر من ذلـك حين خـرج بعض المغفلين منهم، فراحوا يصفون الحياة الرومانسية لبيت النبـوة، ويضـعون في ذلـك الأحـاديث والأكـاذيب، الـتي تصـور الحيـاة الطاهرة لرسول الله ﷺ والممتلئـة بالمعانـاة والآلام والشـدائد، بحياة أولئك الفـارغين المتسـكعين الـذين قصـروا حيـاتهم على امرأة أعطوها عقولهم وقلوبهم وهممهم.

ومن الآثار السلبية الخطيرة لذلك أنهم أوقـروا في نفـوس العامة أن رسول الله ﷺ لم يكن يعدل بين زوجاته، لأنه لم يكن ــ بحسـبهم ــ يحب إلا عائشـة، ولا يحن إلا لهـا، ولا ينطـق إلا بفضلها.. وكأن سائر زوجاته ﷺ مجرد خادمات في بيتـه، ولسـن زوجات محترمات كـان لهن فضـلهن وحـرمتهن كعائشـة سـواء بسواء.

والأخطر من ذلـك كلـه هـو دفـاعهم المسـتميت عن سـن عائشة، وأنها دخلت بيت رسول الله ﷺ صبية صغيرة، وما مـات عنها إلا وهي في أوائـل شـبابها، وكـل من أوصـله بحثـه العلمي إلى خلاف ذلك رمـوه بمـا تعـودوا أن يرمـوا بـه مخـالفوهم من البدعة والضلالة.

بل وصل الأمر إلى ما هو أخطر من ذلك كله، وهـو الغفلـة عن تلك المرأة العظيمة التي ضحت بمالهـا ونفسـها في سـبيل الله.. ولا تدانيها في ذلك ـ وبشهادة رسول اللـه ﷺ ـ أي زوجـة من زوجاته: (خديجة بنت خويلد)

تلك التي عاشت مع رسول الله ﷺ جزءا مهما من حياته، وفي فترة شبابه وكهولته، والتي لم يتزوج عليها غيرها مع كبر سنها، وصغر سنه.. والتي حزن رسول الله ﷺ لفقدها حزنا شديدا، بل ظل يذكرها إلى آخر أيام حياته.. وما ذلك لنزوة أو غريزة أو شهوة، فقد تعالى رسول الله ﷺ عن ذلك كله.. وإنما لما يحمله قلب تلك المرأة من طهارة وصدق وإيمان جعلها تتبوأ الدرجة العليا في سلم نساء العالمين، هي وأخواتها من النساء الثلاث.. ابنتها فاطمة التي هي بضعة رسول الله ﷺ، ومريم، وامرأة فرعون.

ففي الحديث عن ابن عباس قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض أربعة خطوط. فقال: أتدرون ما هذا؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم. فقال: (أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة ابنة محمد ﷺومريم ابنة عمران وآسية ابنة مزاحم امرأة فرعون)[1]

وعن أنس قال: قال النبي ﷺ: (حسبك من نساء العالمين: مريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد. وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون)[2]

وهذا الفضل الذي ذكره رسول الله ﷺ ليس فضلا اعتباطيا، ولا عاطفيا، فرسول الله أكبر من أن يحكم بعاطفته، وقد قال تعالى عنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3، 4]

فرسول الله ﷺهو المعبر عن الحقائق الكبرى للوجود، ولا يمكن لمن كان هذا شأنه أن يميل بهوى، أو ينطق عن عاطفة.

ولذلك فإن فضل خديجة بهذا الاعتبار، ينطبق مع العدل الإلهي، فقد قدمت خديجة من الخدمات لهذا الدين ما لا يصح احتقاره أو التهوين منه.. فقد كانت من أول النساء إسلاما،

1() رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح (الزوائد 223 / 9)

2() رواه الترمذي بسند صحيح والنسائي والحاكم (التاج الجامع للأصول 379 / 3)

وبذلت كل ما لها في سبيل الله إلى أن ماتت في الشعب فقيرة محاصرة لا تجد شيئا تأكله..

ولذلك كان رسول الله ﷺ يكثر من ذكرها، لكونها قدوة صالحة للنساء، ومن السنة النبوية الالتزام بهذه السنة.. وهي ذكر خديجة وفضلها وجهادها ومناقبها.. لكن السنة المذهبية غيبت ذلك كله.. وغيبت معه الدور المثالي للمرأة الصالحة في القيام بالدور الذي تنوء به كواهل الرجال.

ففي الحديث عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة. فيحسن الثناء عليها. فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة. فقلت: هل كانت إلا عجوزاً، فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب، ثم قال: (لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس. وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس. ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء)، قالت عائشة: (فقلت في نفسي لا أذكرها بسيئة أبداً)[1]

وقوله ﷺ: ((لا والله ما أبدلني الله خيراً منها) كلمة عظيمة من الذي لا ينطق عن الهوى، وهي مشفوعة بقسم.. وما كان رسول الله ﷺ يقسم عن هوى..

وكمقارنة بسيطة بين خديجة وغيرها من نساء النبي ﷺ، لم نكن نجرؤ على ذكرها لولا أن القرآن الكريم ذكرها، ولولا أن التمييز العنصري الذي نراه اضطرنا إليها لما ذكرناها.

فقد روي بالأسانيد الكثيرة المتواترة ما يدل على الصبر الذي أبدته خديجة في حياتها مع رسول الله ﷺ في مكة المكرمة، وفي أوقات الشدة العظيمة إلى أن ماتت محاصرة في الشعب.. في نفس الوقت الذي يذكر القرآن الكريم والسنة الصحيحة أن نساء النبي ﷺ ـ وعائشة من بينهن ـ اشتكين حياة الشظف التي يعشنها مع رسول الله ﷺ إلى الدرجة التي نزل القرآن الكريم يخيرن فيها بين صحبة رسول

[1] () رواه أحمد وإسناده حسن (الزوائد 224 / 9)

الله ﷺ والصبر على حياته أو أن يملكن أمرهن بالافتراق عن رسول الله ﷺ.

قال تعالى يبين ذلك: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (28) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 28، 29]

وقد أورد البخاري في سبب نزولها أن عائشة أخبرت: أن رسول الله ﷺجاءها حين أمره الله أن يخير أزواجه، فبدأ بي رسول الله ﷺ، فقال: (إني ذاكر لك أمرا، فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك)، وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه. قالت: ثم قال: (وإن الله قال: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ إلى تمام الآيتين، فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة)[1]

نعم هذا موقف طيب، وأصحاب السنة المذهبية يذكرونه بفخر، ولكنهم يغفلون في غمرة فخرهم واستعلائهم أن خديجة لم يخطر على بالها أصلا أن تطالب رسول الله ﷺ بمثل هذا أو غيره.. بل كانت غنية، ومع ذلك ضحت بمالها كله في سبيل رسول الله ﷺ.. ولم تشتك أي شكوى.. بل بذلت ذلك برضا وطمأنينة وسعادة.

لكن السنة المذهبية للأسف نسفت كل فضلها الذي وردت به الأحاديث الكثيرة، وراحت تهون من شأنها بطرق مختلفة.

منها طريقة التمييع أو ذكر الخلاف في مسألة التفاضل بينها وبين عائشة، فقد قال ابن القيم في زاد المعاد: (وفاطمة أفضل بناته على الإطلاق، وقيل إنها أفضل نساء العالمين، وقيل بل أمها خديجة، وقيل بل عائشة، وقيل بل بالوقف في ذلك)[2]

1() صحيح البخاري برقم (4785)

2() زاد المعاد ج: 1 ص: 104.

ومثل ذلك قال في (جلاء الأفهام) نقلا عن ابن تيمية شيخ إسلام السنة المذهبية: (ومنها أنها خير نساء الأمة واختلف في تفضيلها على عائشة على ثلاثة أقوال، ثالثها الوقف، وسألت شيخنا ابن تيمية فقال: اختص كل واحدة منها بخاصة، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وكانت تسلي رسول الله وتثبته وتسكنه وتبذل دونه مالها فأدركت عزة الإسلام، واحتملت الأذى في الله وفي رسوله، وكانت نصرتها للرسول في أعظم أوقات الحاجة فلها من النصرة والبذل ما ليس لغيرها، وعائشة تأثيرها في آخر الإسلام فلها من التفقه في الدين وتبليغه إلى الأمة وانتفاع نبيها بما أدت إليهم من العلم ما ليس لغيرها هذا معنى كلامه)(3)

ولو تأملنا هذا الدليل الذي ذكره ابن تيمية على تساوي عائشة وخديجة في الفضل، لأدركنا ذلك التمييز العنصري بين أمهات المؤمنين، وإلا فإن جميع أمهات المؤمنين بلغن الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ، وأدين ما رأينه واجبا عليهن، فلم تخص بذلك زوجة دون زوجة.

هذه الخطوة الأولى التي يبدأ بها عادة أصحاب السنة المذهبية، وهي تمييع القضايا بذكر الخلاف الوارد فيها حتى لو كان خلافا اجتهاديا في موضع ورد فيه النص القطعي.

أما الخطوة الثانية، فهي الاحتيال على النص نفسه، حيث لا تصبح فيه خديجة ـ كما ورد في السنة النبوية ـ سيدة نساء العالمين، ولا حتى سيدة زوجاته.. بل تصبح عائشة هي تلك المرأة، وكأن رسول الله ﷺ غفل أو نسي أن يذكر عائشة، فذكر بدلها خديجة.

وسأورد هنا ما ذكره ابن تيمية عند بيانه لتفضيل عائشة على خديجة مع أدلته على ذلك، ثم نناقشها، فقد قال في (منهاج السنة النبوية)، وهو من أهم الكتب المؤسسة للسنة المذهبية: (والجواب أولا أن يقال إن أهل السنة ليسوا مجمعين على أن عائشة أفضل نسائه، بل قد ذهب إلى ذلك كثير من

---

(3) جلاء الأفهام ج: 1 ص: 234.

أهل السنة، واحتجوا بما في الصحيحين عن أبي موسى وعن أنس أن النبي ﷺقال: (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)، والثريد هو أفضل الأطعمة لأنه خبز ولحم.. وذلك أن البر أفضل الأقوات، واللحم أفضل الإدام.. فإذا كان اللحم سيد الإدام، والبر سيد الأقوات، ومجموعهما الثريد، كان الثريد أفضل الطعام. وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال: (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[1]

وقد تبعه على هذا الاستدلال العجيب الشيخ العثيمين الذي قال في شرحه على الواسطية: (قوله: (والتي قال فيها النبي ﷺ: (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) قوله: (على النساء): أي: على جميع النساء.. وقيل: إن المراد: فضل عائشة على النساء، أي من أزواجه اللاتي على قيد الحياة، فلا تدخل في ذلك خديجة.. لكن ظاهر الحديث العموم، لأن الرسول ﷺ قال: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)، وقد أخرجه الشيخان بدون ذكر خديجة. وهذا يدل على أنها أفضل النساء مطلقاً، ولكن ليست أفضل من فاطمة باعتبار النسب؛ لأن فاطمة بلا شك أشرف من عائشة نسباً، وأما المنزلة، فإن عائشة لها من الفضائل العظيمة ما لم يدركه أحد غيرها من النساء)

ومثلهما قال الملا علي القاري: (والأظهر أنها أفضل من جميع النساء، كما هو ظاهر الإطلاق، من حيث الجامعية للكمالات العلمية والعملية المعبر عنهما في التشبيه بالثريد؛ لأنه أفضل طعام العرب، وأنه مركب من الخبز واللحم والمرقة، ولا نظير له في الأغذية، ثم إنه جامع بين الغذاء، واللذة، والقوة، وسهولة التناول، وقلة المؤونة في المضغ، وسرعة المرور في الحلقوم والمريء؛ فضرب رسول الله ﷺ لها المثل به ليعلم أنها أعطيت مع حسن الخلق، وحسن الخلق،

---

[1]() منهاج السنة النبوية ج: 4 ص: 301.

وحسن الحديث، وحلاوة المنطق، وفصاحة اللهجة، وجودة القريحة، ورزانة الرأي، ورصانة العقل، والتحبب إلى البعل، فهي تصلح للتبعل، والتحدث، والاستئناس بها، والإصغاء إليها، وإلى غير ذلك من المعاني التي اجتمعت فيها، وحسبك من تلك المعاني أنها عقلت من رسول الله ﷺ ما لم تعقل غيرها من النساء، وروت عنه ما لم يرو مثلها من الرجال، والله أعلم بالحال)[1]

والغرابة في استدلال ابن تيمية والعثيمين والملا علي القاري، وغيرهم من أتباع السنة المذهبية، يكمن في أمرين:

الأول: هو في الإعراض عن النصوص الواضحة الكثيرة التي تحدد مكانة خديجه ومنزلتها وفضلها على نساء العالمين.. وهي نصوص صريحة لا تحتاج أي تأويل أو تكلف في الشرح والتوضيح.

بالإضافة إلى ذلك، فقد ذكر رسول الله ﷺ لعائشة عندما ذكرت له أن الله أبدله خيرا من خديجة: (لا والله ما أبدلني الله خيرا منها؟)، وهو دليل واضح قطعي في فضل خديجة.. لكن مع ذلك ما أسهل أن تؤول النصوص ويتلاعب بها، وقد سمعت بعضهم يقول في هذا الحديث بعد محاولة التشكيك في سنده: (حتى لو صحت فهي ليست نصاً، لأن من الممكن أن يكون المعنى: أن الله ما أبدلني خيراً منها، لكن أبدلني مثلها)

وهكذا الأمر في الاحتيال على الأحاديث الصحيحة الكثيرة التي تدل على فضل فاطمة الزهراء على نساء العالمين، ففي كتب أصحاب السنة المذهبية تفضيل لعائشة على فاطمة مع أن البخاري روى في صحيحه قوله ﷺ في حق فاطمة الزهراء: (أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة أو نساء المؤمنين)[2]، وروى: قوله ﷺ: (فاطمة سيدة نساء أهل الجنة)[3]، وروى في باب مناقب فاطمة قوله ﷺ: (فاطمة سيدة

---

[1] () مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ملا علي القاري، (18/ 60)

[2] () البخاري (4/183)

نساء أهل الجنة)(1)، وروى عن رسول الله ﷺقوله: (يا فاطمة أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين أو سيدة نساء هذه الأمة) (2)

لكن البخاري عند أصحاب السنة المذهبية مقبول ومبجل ومحترم بشرط ألا يعارض الأصول التي يعتمدون عليها، فهم يقيمون الدنيا ولا يقعدوها لمن نقد حديثا في البخاري.. لكنهم يعطون لأنفسهم الحرية المطلقة في إنكار ما يشاءون إذا تعارض ذلك مع الأصول التي تعتمد عليها سنتهم المذهبية.

الثاني: هو استدلالهم بتفضيل الثريد على سائر الطعام مع ما ورد في نصوص أخرى من فضل اللبن أو التمر أو حتى الخل.. وكلها أحاديث صحيحة.. بالإضافة إلى أن هذه الزيادة في الحديث (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) متكلم فيها، والبعض يعتبرها إدراجا من كلام أبي موسى الأشعري، وهي لا يمكن أن تقاوم كل تلك النصوص الصحيحة الصريحة في فضل خديجة.

بعد هذا فإنا نبادر أولئك الذين يميعون القضايا، ويقولون ـ كما تعودنا أن نسمع منهم ـ: ما الحاجة لطرح لمثل هذه الأمور التي لا يتعلق بها عمل؟

والجواب بسيط وشرعي وأخلاقي.. وهو أننا في في غمرة انتصاراتنا لأهوائنا وذواتنا وأنفسنا وسنتنا المذهبية رحنا نضحي بسمعة رسول الله ﷺ حين نصوره وهو يتعلق بفتاة صغيرة، يسدي لها كل حين أنواع التكريم والتبجيل والتعظيم في نفس الوقت الذي يغفل فيه عن الزوجة التي ساندته لأكثر من خمس وعشرين سنة، وضحت بكل شيء في سبيل الإسلام، وكأننا من حيث لا نشعر نشبهه بأولئك السياسيين الذين إذا ما ارتقى أحدهم في مرتبة من مراتب السلطة ينسى التي عاش معها

3() البخاري (4/209)

1() البخاري (4/219)

2() البخاري (7/142)

شظف العيش، والتي أعانته ليصل إلى ما وصل إليه، ليبدأ حياته مع صبية من الصبايا، يعطيها كل شيء.

ليس ذلك فقط، بل نقوم بتمييز عنصري خطير بين زوجات الرسول ﷺ، حين نصوره، وكأنه لم يكن يعدل بين زوجاته.. بل نحتقر الكثير من زوجاته من حيث لا يشعر حين نقارن علاقته بسودة أو أم سلمة أو غيرهما من نسائه بعلاقته مع عائشة.. وكأن رسول الله ﷺ ذلك الإنسان الكامل الممتلئ بالزهد والعفاف والمتوجه بكل روحانية لله رب العالمين لا يختلف عن أي إنسان آخر مسجون في قيود غريزته وأهوائه.

مع أنه قد روي في السيرة المطهرة أن المشركين عرضوا على رسول الله ﷺ أجمل نسائهم مع كل مفاتيح الدنيا التي يملكونها، ومع ذلك قال لهم: (والله لو وضعوا الشمس في يمينى والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه ما تركته)[1]

بل صور القرآن الكريم ذلك أحسن تصوير حين ذكر ارتقاء رسول الله ﷺإلى الملأ الأعلى.. وهناك لم ينشغل بشيء.. ولم يزغ طرفه لشيء.. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (14) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى (16) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى (17)﴾ [النجم: 13 - 17]

فهل يمكن لهذا الرسول العظيم الذي رأى الجنة ونعيمها، ورأى من آيات ربه الكبرى أن يزيغ بصره في الدنيا لأي شيء؟

---

[1]() الروض الأنف (3/ 45)

الشيعة ومراسم عاشوراء والموقف الشرعي

طلب مني بعض المحترمين أن أكتب نقدا لما يمارسه الشيعة من مراسم وطقوس في عاشوراء وما قبلها وما بعدها، وجوابا له أقول: إن الموقف السليم في هذه المسألة هو أن تحلل تلك الممارسات من جهة دوافعها وأهدافها وأساليبها، وبعد ذلك يمكن أن نجد ما يصح أن ننتقده وننكر عليه ونقف ضده، ويمكن أن نجد ما يصح السكوت عنه أو حتى الإشادة به، لأن الانطلاق من النقد لأجل النقد خلاف للمنهج القرآني الذي يدعونا للاعتدال وعدم غمط الناس حقوقهم في نفس الوقت الذي يدعونا إلى النهي عن المنكر وانتقاده والتحذير منه.

أما الدوافع التي يذكرها الشيعة لتلك الممارسات فهي إحياء ما حصل يوم عاشوراء من المجزرة الرهيبة التي استشهد فيها الإمام الحسين والكثير من أهل بيته، والحادثة لا شك ـ عند المنصفين جميعا من المسلمين وغير المسلمين ــ حادثة خطيرة، ومأساة عظيمة، لا لأنها تتعلق فقط بسبط رسول الله ﷺ وريحانته وسيد شباب أهل الجنة، وإنما لأن ما حصل فيها نذير شؤم بأن الأمة انحرفت انحرافا كبيرا عن هدي نبيها، فلم تراعه حتى في سبطه وريحانته ومن تعتقد أنه سيد شباب أهل الجنة.

وهذا الدافع دافع شرعي لا حرج فيه، بل يمكن الإشادة به، فذلك اليوم من أيام الله، والله تعالى أمرنا أن نذكر بأيام الله.. ومثله يوجد لدى الطرق الصوفية في المدرسة السنية حيث نجدهم يحيون مولد السيد البدوي وعبد القادر الجيلاني ومحمد بهاء الدين شاه نقشبند وغيرهم، ويقيمون لأجل ذلك المراسم المختلفة التي يحضر فيها خواص الناس وعوامهم، وكما لا يصح الإنكار على أولئك لا يصح الإنكار على الشيعة في هذا، فليس الحسين بأقل شأنا ممن نرى إحياء موالدهم كل حين.

أما الأهداف التي يذكرها الشيعة في هذا، فيختلفون فيها

بين الهــــدف المعتــــبر المــــؤثر.. وبين الهـــدف الشــــيطاني الأسطوري..

أما الثاني فهو الذي يهدف إلى بث الأحقـاد ونشـر الفرقـة والفتنـة في الأمـة الواحـدة، فيفـرق بينهـا جميعـا على أسـاس إحيائها لهذه المناسبة أو عـدم إحيائهـا.. ولا شـك أن هـذا هـدف شيطاني، فالشيطان هو الذي يدعو إلى الفرقـة ونشـر الأحقـاد والضغائن وما ينتج عنها بعد ذلك من مظالم.

وأمـا الأول فهـو الـذي يهـدف إلى اسـتثمار تلـك المأسـاة العظيمة في ربط القلوب بمحبة أهل الـبيت والتعلـق بهم، وهـو هدف شرعي ورد في السنة النصوص الكثيرة ما يدعو إليـه، ولا يصح أن يقتصر هذا على طائفة دون طائفة، فأهل الـبيت للأمـة جميعا، وليس لطائفة بعينها..

ولكن الهـدف الأعظم من هـذا هـو اسـتثمار الحادثـة في الـدعوة إلى الإصـلاح والثـورة السـلمية ضـد الظلم والطغيـان، وهذا دافع شرعي، وبسـببه اسـتطاع الإسـلاميون في إيـران أن يسـقطوا دولـة الشـاه، ويقيمـوا دولـة ولايـة الفقيـه، وقـد قـال الخميني معبرا عن هذا: [كل ما عندنا من عاشوراء]، فقـد كـان الخطباء يحولون في هذه المناسبة وغيرها من الشاه الــدكتاتور الطاغية يزيـدا، ويحولـون من الجمـاهير أنصـارا للحسـين، وقـد اسـتطاعوا بـذلك أن يحيـوا روح الثـورة في الشـعب ليسـقط الطاغوت.

وقد عجز الإسلاميون في مصر وغيرها ـــ رغم طـول فـترة عملهم ـ من تحقيق مثل ذلك الإنجاز، لأنهم لم يـدركوا ـــ إدراكـا كاملا ـ أن الجماهير لا تحركها الخطابات العقلية بقدر ما تحركها المؤثرات العاطفية، وخاصة تلك التي تعود لأسباب دينية.

بل إننا لو تأملنا في مسيرة أكبر حركة إسلامية وهي حركة الإخوان المسـلمين لوجـدناهم يعتمـدون هـذه الطريقـة لتوجيـه الرأي العام واستثماره، وإن كان استثمارا محدودا وغـير دقيـق، فقبل فترة كـان خطبـاؤهم يـذكرون كـل حين، وبطـرق مـؤثرة

قصة استشهاد سيد قطب أو عبد القادر عودة وما جرى لهم في السجون والمعتقلات ليؤثروا في عواطف الناس، وقد حصل بعض ذلك التأثير، وهم الآن يحيون كل سنة ما حصل في رابعة، ويضعون المراسم المختلفة لذلك، ويحاولون استثمار عواطف الجماهير في هذا قدر ما استطاعوا.

ولكن كل ذلك لا يرقى لما يفعله الشيعة في استثمار مأساة كربلاء، لأنها حادثة متفق عليها، فلا أحد من الأمة ينكرها، ولا أحد من الأمة ينكر فضل من استشهدوا فيها، بخلاف الشخصيات التي يستثمرها الإخوان والتي هي محل خلاف حتى فيما بينهم.. ولعل القارئ يعرف ما كتبه الكثير من قيادات الإخوان في اتهام سيد قطب بالتطرف والغلو.

هذا من جهة الأهداف، أما من جهة المراسم، فمن خلال استقراء ما يحدث في البيئة الشيعية سواء من خلال كتبهم ومراجعهم أو من خلال ما نراه في قنواتهم الفضائية يمكن أن نجد نوعين من المراسم:

الأولى: مراسم خرافية أسطورية لا شك في تحريمها، بل اعتبارها من الكبائر، مثل الضرب بالسلاسل الحديدية والسيوف وغيرها من المظاهر المشوهة للأهداف النبيلة والدوافع السامية، ومن باب الموضوعية والشهادة لله، فإني لم أجد عالما معتبرا من علماء الشيعة يجيز مثل هذه التصرفات، بل كلهم ــ إلا من شذ منهم ــ وقف ضدها، واعتبرها بدعا وأنكرها إنكارا شديد، بل إن العقوبات في إيران ــ عاصمة الشيعة، وحيث لا تمارس التقية ــ تسلط على من يقوم بمثل تلك السلوكات.

وعلى من ينكر هذه السلوكات من المنحرفين من عوام الشيعة أن ينكرها كذلك على المنحرفين من الطرق الصوفية حيث نجد فيهم من المنكرات المرتبطة بهذا ما يحتاج هو الآخر إلى الإنكار.

ولكن من الخطأ أن يتهم الصوفية أو الشيعة جميعا بسبب

ممارسات خاطئة يقوم بها المنحرفون من عوامهم.. فالشـهادة لله تقتضي أن توضع الأمور كلها في نصابها الصحيح.

الثانية: مراسم عادية، لا يمكن أن ننظر إليها نظرة سلبية مثـل إقامـة المجـالس، واسـتمارها في التـذكير بالحادثـة وأخـذ العبر منها، بل اسـتثمارها أخلاقيـا من حيث إحيـاء قيم التضـحية والإيثـار والشـجاعة والنبـل والرسـالية وعـدم المهانـة والذلـة وغيرها، مثل المجالس التي كـان يقيمهـا الشـيخ أحمـد الـوائلي وغيره من الخطباء الكبار، فهذه مما لا شك في شرعيتها، لأنهـا لا تحوي أي دعوة للتفرقة أو الفتنة.

ومثلها القصائد التي تلقى أو تنشد، والتي تخلـو من الـدعو ة للفتنة، فهذه أيضا ممـا لا شـك في إباحتهـا، ولـو رأينـا الواقـع السـني لوجـدنا فيـه نفس هـذه الأمـور.. فللصـوفية قصـائدهم وسماعهم.. وللحركات الإسلامية قصائدها وأناشيدها.. بـل حـتى الجماعـات المسـلحة تسـتثمر هـذا الجـانب في تجنيـد أفرادهـا وشحذ هممهم.

أما اللطم على الصدور، فإن كان مؤذيـا للجسـد، فلا شـك في حرمته، أما إن لم يكن مؤذيا، فلا حرج فيه، فهو كالتصـفيق، ولم أر من يحـرم التصـفيق، إلا إذا اعتـبر شـخص مـا أن ذلـك اللطم شعيرة من الشعائر التعبدية، فهذا غير صحيح، فالشـعائر التعبدية تحتـاج إلى الـدليل من الكتـاب والسـنة، ولا دليـل على ذلك من الكتاب والسنة حتى نعتبره شعيرة.

وعلماء الشيعة المعتبرون يقولون ذلك أيضا، فهم يعتبرونه نوعا من التعبير العاطفي، وليس شعيرة ولا عبادة.

هذا هو الموقف الشـرعي ــ كمـا أتصـوره ــ وأنـا أعلم أن الكثير لا يرتاح لمثل هـذا الحـديث، لأن لديـه حساسـية مفرطـة من الشـيعة، فهـو يريـد لكـل من ذكـرهم أن يتخلى عن عقلـه ومنطقه ليخاطبهم جميعا بلغة اللعن والسـب والتكفـير.. وأنـا لا أحسن هذه اللغة.. ولهذا أرجو المعذرة ممن طلب مني الكتابـة في هذا، فقد أجبته بمنهجي، وكل إناء بما فيه ينضح.

رجب .. والتسابق إلى الخيرات

شهر رجب من الأشهر المحرمة التي ورد في النصوص المقدسة ما يبين فضله وخيريته وكونه من أيام النفحات التي من تعرض لها لن يشقى أبدا..

فهو فرصة عظيمة لأصحاب الذنوب ليتطهروا من ذنوبهم، ويستعيدوا فطرتهم الأصلية، ونقاءهم الطبيعي، أو ـ باللغة المعاصرة ـ يعيدوا لذواتهم ضبطها الافتراضي الصحيح الخالي من كل شائبة.

وهو فرصة ـ كذلك ـ لأصحاب الحاجات ليرفعوا أيديهم لمخازن الرحمة الإلهية التي تفتح في هذا الشهر وما يليه، كما لا تفتح في غيره..

وهو فرصة أيضا لأصحاب الهمم العالية للعروج للحضرة المقدسة لينهلوا منها المعارف والأذواق ما لا يجدون مثله في سائر الأشهر.

وهكذا فإن لهذا الشهر العظيم نفحاته الخاصة، وبركاته المميزة، التي خصه الله بها، والله تعالى يخص ما يشاء بما شاء، ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: 68]

وقد شاء ـ بحسب ما تدل عليه الروايات ـ أن يجعل هذا الشهر المعظم مناسبة من مناسبات فضله العظيم الذي لا يحد ولا يعد.

وبناء على هذا سارت الأمة بمذاهبها وطوائفها تعظم هذا الشهر، وتنتظر نفحاته، وتقوم بتهيئة نفسها لتلقي بركاته ومدده وفضله وخيره.. كل حسب طاقته وحسب الوجهة التي تولاها..

أما الصوفية، والذين يشكلون أكثر الأمة باعتبار أن أكثر أصحاب المذاهب الأربعة تبنوا في السلوك التحققي والتخلقي الطرق الصوفية.. فإن لرجب عندهم مكانة خاصة، ولهذا

يشتغلون فيه بأنواع العبادات والأذكار التي يخصونها به دون غيره، بناء على الروايات الي يرفعونها إلى رسول الله ﷺ ، ويعتقدون فيها اعتقادا عظيما، ومنها قوله ﷺ: (ألا إنَّ رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمّتي. فمن صام يوماً من رجب ايماناً واحتساباً استوجب رضوان الله الأكبر وأسكنَ الفردوس الأعلى)

ومنها قوله ﷺ : (أكرموا رجب يكرمكم الله بألف كرامة يوم القيامة)

ومنها قوله ﷺ : (فضل رجب على سائر الشهور كفضل القرآن على سائر الكلام)

ومنها قوله ﷺ : (أكثروا من الاستغفار في شهر رجب، فإن الله تعالى في كل ساعة منه عتقاء من النار وإن لله مدائن لا يدخلها إلا من صام رجب)

وهم ينقلون عن شيوخهم أن (رجب خصَّ بالمغفرة من الله تعالى، وشعبان خص بالشفاعة، ورمضان خص بتضعيف الحسنات)

وينقلون عنهم أن (رجب شهر التوبة وشعبان شهر المحبة ورمضان شهر القربة)

وينقلون عنهم أن (رجب ثلاثة حروف، راء وجيم وباء. فالراء رحمة الله، والجيم جول الله، والباء بِرّه)

وينقلون عنهم أن (اسمه رجب المرجم لأن الشياطين ترجم فيه لئلا يؤذوا المؤمنين)

وبناء على هذا راحت الطرق الصوفية تتنافس في إكرام هذا الشهر العظيم، وتأدية حقه، والتعرض لنفحاته وبركاته.

ومن النماذج على ذلك ما يقوم به رجال الطريقة النقشبندية أو بعض فروعها من عبادات وأذكار وآداب يستقبلون بها هذا الشهر، ويعيشون معها في ظلال نفحاته.

ومن تلك الأعمال هذا الدعاء العظيم الذي يستقبلون به هذا الشهر الكريم: (يا ربي، إنني نويت أن أتقدم نحو بحر وحدانيتك إلى مقام الفناء فيك، فلا تردني يا ربي يا الله خائباً حتى توصلني إلى ذاك المقام. يا رب العزة والعظمة والجبروت يا ربي يا الله حيث هذا الشهر هو شهرك، جئتك ضيفاً وناوياً أن أعمل عملاً بدون عوضٍ أو أن يكون فيه طلباً للفضيلة، قاصداً إياكَ، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي. يا ربي كل عمري قد أمضيته في المعاصي والشرك الخفي وإنني أُقر بأنني لم آتِ إلى بابك بعمل مقبولٍ عندك. أنت الله الذي لا يأتي أحدٌ إلى بابك بعمله، بل بفضلك وجودك وكرمك وإحسانكَ. أنت الله الذي لا ترد عبداً جاء إلى بابك فلا تردني يا الله. يا ربي كل أُموري فوضتها إليكَ حياتي ومماتي وبعد مماتي ويوم المحشر. كل أُموري حولتها عندك وفوضت أمري إليك، لا أملك من أمر نفسي شيئاً، لا نفعاً ولا ضراًّ ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. كلُّ أموري وحسابي وسؤالي وجوابي حولته عندك يا ربي يا الله. ناصيتي بيدك، وأنا عاجز عن الجواب ولو بمثقال ذرة. لو كان لك يا ربي بابين، أحدهما مخصص للتائبين من عبادك المؤمنين والآخر للتائبين من عبادك العاصين الكافرين، جئتك يا الله نحو بابك الذي يحتاج أن يدخل منه عبادك العاصين والكافرين وإني أُقر وأعترف أنه يجب أن أجدد إسلامي وإيماني من هذا الباب. وهذا العمل هو أول عمل لي بعد ما شهدت بالإسلام حقاًّ يا ربي وأنت وكيلي يا وكيل حيث نقول، الله على ما نقول وكيل وشهيد)

وبعد أن يقول هذا الدعاء الممتلئ بالرقة والطهارة والتوحيد ينطق المريد بكلمتي الشهادة (3 مرات)، وكأنه يجدد إسلامه من جديد.. ثم يقول: (يا ربي في يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: 172] ، ماذا كان بيني وبينك من عهود قد قبلتها وتعهدت بها ورضيتُ بها جميعاً. وهذا تجديد للعهود المأخوذة في يوم العهد والميثاق في حضرة الله تعالى).

ويقول: (يا ربي يا الله، كم ظهر مني من ذنوب ومعاصي ظاهراً وباطناً وسراً من عهد إيجاد ذرتي وروحي ودخول روحي

إلى جسمي وظهوري من العدم إلى الوجود وظهوري في عالم الـدنيا وإلى يومنـا هـذا، رجعتُ عن الجميـع إليـك بالتوبـة والإستغفار وإنني قـد دخلتُ وسـلكتُ في رحَمـاتِ شـهركَ هـذا المبارك، فلا تردني يا ربي عن بابك ولا تتركـني لأحـوال نفسـي ولو لحظة، وأنا أستغفرك)

وبعد هـذه التوبـة وتجديـد العهـد مـع اللـه يبـدأ المريـد في الكثير من الأعمال التي يشغل بهـا شـهره، كالاسـتغفار وقـراءة القـرآن الكـريم والكثـير من الأدعيـة والمناجـاة الـتي تزيـد في توثيق صلته بربه، وتوثيق علاقته به.

وهكذا فإن للحضرة النبوية حظهـا العظيم في هـذا الشـهر لدى مريد الطريقة النقشـبندية وغيرهـا من الطـرق الصـوفية.. فبالإضافة لكثرة الصلاة على رسول الله ﷺ يردد مريد الطريقة النقشبندية هذه الصلاة الخاصة: (اللهم صـل على محمـد النـبي المختار، عـدد من صـلى عليـه من الأخيـار، وعـدد من لم يصـل عليه من الأشرار، وعدد قطرات الأمطار، وعـدد أمـواج البحـار، وعـدد الرمـال والغفـار، وعـدد أوراق الأشـجار، وعـدد أنفـاس المستغفرين بالأسحار، وعدد أكمام الأثمار، وعـدد مـا كـان ومـا يكون إلى يـوم الحشـر والقـرار، وصـل عليـه مـا تعـاقب الليـل والنهار، وصل عليه ما اختلف الملوان وتعـاقب العصـران وكـرر الجديدان واستقبل الفرقدان، وبلغ روحـه وأرواح أهـل بيتـه منـا تحية وتسليما وعلى جميع الأنبيـاء والمرسـلين والحمـد للـه رب العالمين. اللهم صل على محمد وعلى آل محمد بعـدد كـل ذرة ألف ألف مرة، اللهم صل على محمد وعلى آله وصحبه وسـلم. سـبوح قـدوس ربنـا ورب الملائكـة والـروح، رب اغفـر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم)

وهكذا نجد الأوراد المختلفة كهذا الورد العظيم: (اللهم إني أستغفرك من كل ما تبت عنه إليـك ثم عـدت فيـه، وأسـتغفرك من كل ما أردت به وجهك فخالطني فيه ما ليس فيـه رضـاؤك، وأستغفرك للنعم التي تقويت بها على معصيتك، وأستغفرك من الـذنوب الـتي لا يعلمهـا غـيرك ولا يطلـع عليهـا أحـد سـواك ولا

تسعها إلا رحمتك ولا تنجي منها إلا مغفرتك وحلمك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين. اللهم إني أستغفرك من كل ظلم ظلمت به عبادك، فأيما عبد من عبادك أو أمة من إمائك ظلمت في بدنه أو عرضه أو ماله فأعطه من خزائنك التي لا تنقص، وأسألك أن تكرمني برحمتك التي وسعت كل شيء ولا تهينني بعذابك، وتعطيني ما أسألك فإني حقيق برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم)

ومنها هذا الذكر العظيم: (بسم الله النور، نور على نور، والحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، وأنزل التوراة على جبل الطور في كتاب مسطور، والحمد لله الذي هو بالغنى مذكور، وبالعز والجلال مشهور، والحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، كهيعص حمعسق، إياك نعبد وإياك نستعين، يا حي يا قيوم، الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز، يا كافي كل شيء اكفني واصرف عني كل شيء، إنك قادر على كل شيء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، اللهم يا كثير النوال ويا دائم الوصال ويا حسن الفعال ويا رازق العباد على كل حال أسألك وأستغفرك من كل الشك في إيماني بك ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم إن دخل الشك والكفر في توحيدي إياك ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .. اللهم إن دخلت الشبهة في معرفتي إياك ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم إن دخل العجب والرياء والسمعة في علمي ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم إن جرى الكذب على لساني ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم إن دخل النفاق في قلبي من الذنوب الصغائر والكبائر ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم ما أسديت إلي من خير ولم أشكرك ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم ما قدرت إلي من أمر ولم أرضه ولم

أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم ما أنعمت علي من نعمة فعصيتك وغفلت عن شكرك ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.. اللهم ما مننت به علي من خير فلم أحمدك عليه ولم أعلم به، تبت عنه وأقول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ..) إلى آخر الدعاء والمناجاة.

ولا يمكننا إحصاء ما يقوم به مريدو هذه الطريقة من أعمال في هذا الشهر العظيم.. وهكذا نجد لكل طريقة أسلوبها الخاص في إحياء هذا الشهر العظيم وإكرامه والتعرض لنفحاته..

ومثلهم نجد الشيعة الإمامية الاثناعشرية يروون الروايات الكثيرة عن رسول الله ﷺ وعن أهل بيت النبوة في إحياء هذا الشهر العظيم وإكرامه والتعرض لنفحاته..

ومن ذلك ما يروونه عن رسول الله ﷺ من قوله: (إنّ رجب شهر الله العظيم لايقاربه شهر من الشهور حرمة وفضلاً .. ألا إنّ رجب شهر اللهُ ، وشعبان شهري ، ورمضان شهر أمتي. ألا فمن صام من رجب يوما استوجب رضوان الله الأكبر ، وابتعد عنه غضب الله وأُغلق عنه باب من أبواب النار)(1)

ويروون عنه ﷺ قوله: (رجب شهر الاستغفار لأُمَّتي ، فأكثروا فيه الاستغفار فإنه غفور رحيم. ويسمى رجب الاصبّ لانّ الرحمة على أُمّتي تصبُّ فيه صَبّا ، فاستكثروا من قول : أَسْتَغْفِرُ الله وَأَسْأَلُهُ التَّوْبَةَ)(2)

ويروون عن موسى الكاظم قوله: (من صام يوما من رجب تباعدت عنه النار مسير سنة ومن صام ثلاثة أيام وجبت له الجنة)(3) ، وقوله: (رجب نهر في الجنة أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل ، من صام يوما من رجب سقاه الله عز

(1) رواه المجلسي في زاد المعاد : 5.

(2) زاد المعاد : 5.

وجل من ذلك النهر)(1)

ويـــروون عن عن ســـالم قـــال : دخلت على الصـــادق عليهالسلام في أواخر شـهر رجب، وقـد بقيت منـه أيـام ، فلمـا نظر إلى قال لي : يا سالم ، هل صمت في هـذا الشـهر شَـيْئاً؟ قلت : لا واللـه يـا بن رسـول اللـه ، فقـال لي : فقـد فاتـك من الثواب مالم يعلم مبلغه إِلاّ الله عز وجل. إن هذا شهر قد فضّله الله وعظّم حرمته وأوجب للصائمين فيه كرامتـه. قـال : فقلت له : يا ابن رسول الله ، فإن صمت مما بقي منـه شَـيْئاً هـل أنـا أفوز ببعض ثواب الصـائمين فيـه؟ فقـال : يـا سـالم ، مَنْ صـام يومـاً من آخـر هـذا الشـهر كـان ذلـك أمانـا من شـدة سـكرات الموت ، وأمانا له من هول المطلـع وعـذاب القـبر ، ومن صـام يومين من آخر الشهر كان له بذلك جـوازاً على الصّـراط ، ومن صام ثلاثة أيام من آخر هـذا الشـهر أمن من يـوم الفـزع الأكـبر من أهواله وشدائده ، وأعطي براءة من النار)(2)

وهكـذا نـرى الروايـات الكثـيرة تـبين فضـل هـذا الشـهر، وتفصل أبواب الخير التي يؤديها المؤمن الموالي لآل بيت النبوة فيه..

وهي أعمال كثيرة جدا .. لكن أهمها ـ في رأيي المتواضع ـ هو تلك الأدعية العظيمـة الممتلئـة بالتوحيـد والإخلاص والتوجـه الصادق لله.. ولست أدري كيف عمي التكفيريون عنها، فراحــوا ـ بدل أن يتنافسوا في ترديدها معهم ـ يكفرون من يلهجون بهــا موحدين مذعنين مسلمين.

وسأقتصر هنا على بعض النماذج التي ذكرها الشيخ عبـاس القمي في كتابـه العظيم [مفـاتيح الجنـان] وهي موجــودة على النت بأصوات جميلة مؤثرة.. وأسوقها هنا لصـنفين من النـاس:

3() زاد المعاد : 5.

1() رواه الطوسي في التهذيب 4 / 306 ح 924.

2() زاد المعاد : 5.

أولهما أولئك التكفيريون الذين اتهموا الأمة جميعا بالشرك من غير تحقيق ولا تدقيق ولا ورع .. وثانيهما أولئك الصادقون من المؤمنين الذين يتسابقون إلى الخيرات، ولا يهمهم من أي جهة صدرت، ولا من أي باب فتحت.. فهم ــ كما يقول الغزالي ـ يأكلون البقلة، ولا يسألون عن البقال، ويأخذون الحكمة من أي وعاء خرجت.

فمن تلك الأدعية والأذكار هذا الذكر الذي ذكر الشيخ القمي ـ بناء على بعض الروايات ـ أنّ من لم يقدر على الصوم في رجب يذكره ـ كبديل له ـ في كل يوم مائة مرة لينال أجر الصيام فيه، وهو (سبحان الاله الجليل سبحان من لاينبغي التسبيح إلا له سبحان الاعز الاكرم سبحان من لبس العز وهو له أهل(2)[1]

ومنها أن يدعو في كل يوم من رجب بهذا الدعاء الذي روي أن الإمام زين العابدين دعا به في الحجر في غرة رجب : (يا من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمير الصامتين لكل مسألة منك سمع حاضر وجواب عتيد ، اللهم ومواعيدك الصادقة وأياديك الفاضلة ورحمتك الواسعة ، فأسألك أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تقضي حوائجي للدنيا والآخرة إنك على كل شي قدير)[2]

ومنها أن يدعو بهذا الدعاء الذي كان يدعو به الإمام جعفر الصادق في كل يوم من رجب : (خاب الوافدون على غيرك وخسر المتعرضون إلا لك وضاع الملمون إلا بك وأجدب المنتجعون إلا من انتجع فضلك ، بابك مفتوح للراغبين وخيرك مبذول للطالبين وفضلك مباح للسائلين ونيلك متاح للاملين ورزقك مبسوط لمن عصاك وحلمك معترض لمن ناواك ، عادتك الاحسان إلى المسيئين وسبيلك الإبقاء على المعتدين. اللهم فاهدني هدى المهتدين وارزقني اجتهاد المجتهدين ولا

1() زاد المعاد : 8.

2() زاد المعاد : 8.

تجعلني من الغافلين المبعدين واغفر لي يوم الدين)([1])

ومنها ما روي عنه كذلك من قوله: (اللهم إني أسألك صبر الشاكرين لك وعمل الخائفين منك ويقين العابدين لك ، اللهم أنت العلي العظيم وأنا عبدك البائس الفقير أنت الغني الحميد وأنا العبد الذليل ، اللهم صل على محمد وآله وامنن بغناك على فقري وبحلمك على جهلي وبقوتك على ضعفي يا قوي يا عزيز ، اللهم صل على محمد وآله الأوصياء المرضيين واكفني ما أهمني من أمر الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين)([2])

ومنها هذا الدعاء الذي يذكرون أنه يستحب أن يدعو به المؤمن كل يوم : (اللهم يا ذا المنن السابغة والآلاء الوازعة والرحمة الواسعة والقدرة الجامعة والنعم الجسيمة والمواهب العظيمة والايادي الجميلة والعطايا الجزيلة ، يا من لا ينعت بتمثيل ولا يمثل بنظير ولا يغلب بظهير ، يا من خلق فرزق وألهم فأنطق وابتدع فشرع وعلا فارتفع وقدر فأحسن وصور فأتقن واحتج فأبلغ وأنعم فأسبغ وأعطى فأجزل ومنح فأفضل ، يا من سما في العز ففات نواظر الابصار ودنا في اللطف فجاز هواجس الافكار يا من توحد بالملك فلا ند له في ملكوت سلطانه وتفرد بالآلاء والكبرياء فلا ضد له في جبروت شأنه ، يا من حارت في كبرياء هيبته دقائق لطائف الاوهام وانحسرت دون إدراك عظمته خطائف أبصار الانام ، يا من عنت الوجوه لهيبته وخضعت الرقاب لعظمته ووجلت القلوب من خيفته ؛ أسألك بهذه المدحة التي لا تنبغي إلا لك وبما وأيت به على نفسك لداعيك من المؤمنين وبما ضمنت الاجابة فيه على نفسك للداعين ، يا أسمع السامعين وأبصر الناظرين وأسرع الحاسبين ، يا ذا القوة المتين صل على محمد خاتم النبيين وعلى أهل بيته ، واقسم لي في شهرنا هذا خير ما قسمت واحتم لي في قضائك خير ما حتمت واختم لي بالسعادة فيمن ختمت ، وأحيني ما أحييتني موفورا وأمتني مسرورا ومغفورا ،

---

[1]() زاد المعاد : 8..

[2]() مصباح المتهجّد : 802..

وتول أنت نجاتي من مسألة البرزخ وادرأ عني منكرا ونكيرا وأرعيني مبشرا وبشيرا ، واجعل لي إلى رضوانك وجنانك مصيرا وعيشا قريرا وملكا كبيرا وصل على محمد وآله كثيرا)(1)

وغيرها من الأدعية الكثيرة .. بالإضافة للكم الكبير من الأذكار.. ومنها أن يستغفر في هذا الشهر ألف مرة قائلا : (أستغفر الله ذا الجلال والاكرام من جميع الذنوب والآثام)(2)

ومنها قراءة (قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ) عشرة آلاف مرة أو ألف مرة أو مائة مرة بحسب الطاقة(3)

وغير ذلك من الأعمال الكثيرة التي لا يمكن إحصاؤها هنا.. والتي تبين أن الشيعة مثلهم مثل الصوفية يهتمون بإكرام هذا الشهر، ويتعرضون لنفحاته..

بل إننا نجد الكثير من الأعمال المشتركة.. بل الأدعية المشتركة التي تجعل الأمة جميعا أمة واحدة في توجهها إلى الله وتعرضها لنفحاته.

وفي وسط هذا الكم من الصادقين والمخلصين والمتسابقين لرضوان الله، نجد أولئك المشاغبين الذين لا هم لهم إلا التكفير والتبديع والتضليل..

فإن هؤلاء وحدهم، ولكسلهم عن أداء الأوراد، ولكبرهم وغرورهم وتصورهم أن الحق حكر لهم، وأن السنة لهم وحدهم دون غيرهم.. راحوا يبدعون هؤلاء جميعا ويضللونهم، ويتصورون أن كل تلك الأذكار والدعوات والصلوات في النار، لأنها بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ومن العجب أن يصبح الاستغفار والتهليل والتكبير

1() مصباح المتهجّد : 802.

2() المراقبات : لميرزا جواد ملكي في اعمال رجب ، 101..

3() الاقبال 3 / 217.

والمناجاة وتعظيم الأشهر الحرم بدعة وضلالة.. بينما يصبح الصد عن سبيل الله وعن ذكره وعن التنافس في ذلك سنة وهداية.

وهم يوردون لهذا قول ابن حجر: (لم يرد في فضل شهر رجب، ولا في صيامه ، ولا في صيام شيء منه معين، ولا في قيام ليلة مخصوصة فيه.. حديث صحيح يصلح للحجة، وقد سبقني إلى الجزم بذلك الإمام أبو إسماعيل الهروي الحافظ، رويناه عنه بإسناد صحيح، وكذلك رويناه عن غيره)[1]

وهذا وأمثاله من الحجب التي تحول بينهم وبين التنافس في الخيرات.. ولو أنهم أعملوا عقولهم، وعلموا أن هذا الشهر من الأشهر المحرمة التي اتفقت الأمة جميعا على فضلها، وفضل العمل الصالح فيها، لاكتفوا بذلك.. ولتركوا لكل فصيل من فصائل الأمة الحق في أن يمارس ما يراه مناسبا من إكرام هذا الشهر والتقرب إلى الله فيه.

ولو أنهم تواضعوا أكثر لقبلوا تلك الروايات الكثيرة التي يرويها الشيعة والصوفية في فضل هذا الشهر، وفضل الأعمال الصالحة فيه.. لكنهم يطبقون على كذب الصوفية وكذب الشيعة في نفس الوقت الذي يقبلون فيه كل الهرطقات والخرافات التي يرويها كعب الأحبار ووهب بن منبه ومن تتلمذ عليهم من سلفهم الصالح.

1() تبيين العجب فيما ورد في فضل رجب ، لابن حجر ، ص6 ، وانظر: السنن والمبتدعات للشقيري ، ص125.

أدعية العترة.. والسير التحققي والتخلقي

عندما نتأمل تلك المعاني القدسية العظيمة النابعة من بحار القرآن الكريم، والواردة عن العترة المطهرة من آل بيت النبوة، ندرك بعض معاني وصيته ﷺ بهم، واعتبارهم حبلا من حبال النجاة، وسفينة من سفنها.

لكن هذه الأدعية للأسف الشديد ـ مع أهميتها وجلالة المعاني التي تدل عليها ـ لم تلق العناية الكافية من طرف الطائفة الأكبر في الأمة، والتي اختارت لنفسها أن تسمى [أهل السنة والجماعة]، وهذا من كيد الشيطان لتفرقة صف الأمة، وصدع وحدتها.

وإلا فما الضرر الذي تحمله تلك الأدعية الطاهرة على منهج أهل السنة والجماعة.. فكلها توحيد خالص.. وكلها قيم رفيعة، ومعان سامية.. وكلها تحلق بالروح في الآفاق العليا من العرفان .. وتحلق بالنفس في أسمى القيم الإنسانية الرفيعة.

وليس فيها جميعا تعرض لأي مقدس من المقدسات التي فرضها التاريخ على المسلمين .. ليس فيها تعرض للصحابة، ولا لغيرهم.. ولا فيها ذكر لأحداث التاريخ.. ولا لشيء من تلك القضايا الخلافية التي تناسى المسلمون بسببها كونهم أمة واحدة.

بل إنها أحسن مثال على المشتركات التي يتفق فيها المسلمون جميعا، وهي فوق ذلك كله صادرة من العترة الطاهرة الذين كانوا أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ.. والذين كانوا أكثر فهما للدين، ووعيا له، وتحققا به..

فهي جميعا صادرة إما عن الإمام علي أو ابنيه الحسن والحسين أو السجاد أو الباقر أو الصادق أو الكاظم أو غيرهم ممن يتفق السنة والشيعة جميعا على ولايتهم وصلاحهم وعلمهم، بالإضافهم إلى اتفاقهم على تبجيلهم لقربهم من

رسول الله ﷺ ، وتمثيلهم الصحيح للدين وقيمه.

وكمثال على ذلك أدعية الإمـام السـجاد الكثـيرة، والـتي لا يزال الشيعة يرددونها، بينما يغفل عنها أهل السنة مع اعترافهم بفضل السجاد ومكانته وكثرة عبادته وطاعته.. ولكنهم ـ للأسف ـ يكتفون بذلك، ويتوقفون عنده، ولا يسألون عن تراثه العرفاني العظيم، والمتمثـل في تلـك الأدعيـة الـتي هي امتـداد للقـرآن والنبوة والطهارة.

وكنمـوذج على ذلـك ــ لا نجـد لـه نظـيرا في كـل الـتراث السني ـ ما يسمى بالمناجيات(1) الخمسة عشر، وهي مناجيات تشمل معاني مختلفة مصنفة إلى خمسة عشر صنفا(2) ..

أولهـا مناجـاة التـائبين.. وهي مناجـاة تبـدأ بهـذا المقطـع الجميل الذي يملأ النفس بجميع معاني العبودية والخضـوع للـه، وكأنها تعلم التـائب كيـف يقـف بين يـدي ربـه متضـرعا معترفـا منبيا: (إلهي ألبستني الخطايا ثوب مذلتي وجللني التباعـد منـك لباس مسكنتي وأمات قلبي عظيم جنايتي فأحيه بتوبـة منـك يـا أملي وبغيتي وياسؤلي ومنيتي ، فوعزتك ماأجد لـذنوبي سـواك غافرا ولا أرى لكسري غيرك جـابرا وقـد خضـعت بالإنابـة إليـك وعنوت بالاستكانة لديك ، فإن طردتني من بابك فبمن ألوذ وإن رددتــني عن جنابــك فبمن أعــوذ ، فــوا أســفاه من خجلــتي وافتضاحي ووالهفاه من سوء عملي واجتراحي)(3)

وثانيها مناجاة الشاكين، وهي مناجاة يتوجه فيها العبــد إلى الله تعالى شاكيا إليه أعـداءه الـذين يحولـون بينـه وبين التوجـه إليه، وأولهم النفس الأمارة بالسوء، يقول السجاد في مناجاتــه:

(إلهي إليـك أشـكو نفسـا بالسـوء أمـارة وإلى الخطيئـة مبـادرة وبمعاصيك مولعة

1() جمع مُنَاجَاة : مُنَاجَيَات، بقلب الألف إلى أصلها الياء، وذلك مثل: [مباراة ومباريات]

2() ربما يكون الذي قام بذلك المؤلفون والمصنفون لا الإمام السجاد نفسه.

3() بحار الأنوار: 94 / 142.

ولسخطك متعرضة ، تسلك بي مسالك المهالك وتجعلني عندك أهون هالك كثيرة العلل طويلة الامل إن مسها الشر تجزع وإن مسها الخير تمنع ميالة إلى اللعب والله ومملوة بالغفلة والسهو تسرع بي إلى الحوبة وتسوفني بالتوبة)(1) .. إلى آخر المناجاة التي تزرع في نفس تاليها تلك المعاني التي أكد عليها القرآن الكريم، والتي تختصر العداوة في النفس والشيطان والقلب القاسي الغليظ.

وثالثها مناجاة الخائفين، وهي مناجاة تختصر لتاليها كل المعاني التي تملأ قلبه بالخوف، بل ترفعه إلى مقامه الرفيع، وما يثمره من سلوك تحققي وتخلقي.. يقول السجاد في بداية هذه المناجاة: (إلهي أتراك بعد الايمان بك تعذبني أم بعد حبي إياك تبعدني أم مع رجائي لرحمتك وصفحك تحرمني أم مع استجارتي بعفوك تسلمني؟ حاشا لوجهك الكريم أن تخيبني! ليت شعري أللشقاء ولدتني أمي أم للعناء ربتني؟ فليتها لم تلدني ولم تربني وليتني علمت أمن أهل السعادة جعلتني وبقربك وجوارك خصصتني ، فتقر بذلك عيني وتطمئن له نفسي. إلهي هل تسود وجوها خرت ساجدة لعظمتك ، أو تخرس ألسنة نطقت بالثناء على مجدك وجلالتك..) (2)

ورابعها مناجاة الراجين، وهي مناجاة تملأ القلب بمعاني الرجاء في الله وفي فضله العظيم، لتضع المداوم عليها في هذا المقام الرفيع، وما يثمره من قيم سلوكية وعرفانية.. يقول السجاد في مقدمة هذه المناجاة: (يا من إذا سأله عبد أعطاه وإذا أمل ماعنده بلغه مناه وإذا أقبل عليه قربه وأدناه وإذا جاهره بالعصيان ستر على ذنبه

1() بحار الأنوار: 94 / 143.

2() بحار الأنوار: 94 / 143.

وغطاه وإذا توكل عليه أحسبه وكفاه ، إلهي من الذي نزل بك ملتمسا قراك فما قريته ومن الذي أناخ ببابك مرتجيا نداك فما أوليته؟ أيحسن أن أرجع عن بابك بالخيبة مصروفا ولست أعرف سواك مولى بالاحسان موصوفا؟ كيف أرجو غيرك والخير كله بيدك وكيف أؤمل سواك والخلق والأمر لك أأقطع رجائي منك وقد أوليتني مالم أسأله من فضلك ، أم تفقرني إلى مثلي وأنا أعتصم بحبلك؟!) (1)

وخامسها مناجاة الراغبين، وهي مناجاة تملأ القلب بالرغبة في الله والتعرف عليه والسير إليه، يقول السجاد في مقدمتها: (إلهي إن كان قل زادي في المسير إليك فلقد حسن ظني بالتوكل عليك وإن كان جرمي قد أخافني من عقوبتك فإن رجائي قد أشعرني بالأمن من نقمتك ، وإن كان ذنبي قد عرضني لعقابك فقد آذنني حسن ثقتي بثوابك ، وإن أنامتني الغفلة عن الاستعداد للقائك فقد نبهتني المعرفة بكرمك وآلائك)(2)

وسادسها مناجاة الشاكرين، وهي مناجاة ترفع القائل لها، والمداوم عليها إلى مقام الشكر، وتعرفه بحقيقته ومنازله، وفيها يقول السجاد: (إلهي أذهلني عن إقامة شكرك تتابع طولك وأعجزني عن إحصاء ثنائك فيض فضلك وشغلني عن ذكر محامدك ترادف عوائدك وأعياني عن نشر عوارفك توالي أياديك ، وهذا مقام من اعترف بسبوغ النعماء وقابلها بالتقصير ، وشهد على نفسه بالآمال والتضييع وأنت الرؤوف الرحيم البر الكريم الذي لا يخيب قاصديه ولا يطرد عن فنائه آمليه بساحتك تحط رحال الراجين وبعرصتك تقف آمال المسترفدين فلا تقابل آمالنا بالتخييب والاياس ولا تلبسنا

1() بحار الأنوار: 94 / 144..

2() بحار الأنوار: 94 / 145..

سربال القنوط والابلاس)(1)

وسـابعها مناجـاة المطيعين للـه، وهي مناجـاة تحث على طاعـة، وتعلم المنـاجي بهـا كيـف يجعـل اللـه مقصـده الأعلى والأهم والأولى من كل شيء.. يقول السجاد فيها: (اللهم احملنا في سـفن نجاتـك ومتعنـا بلذيـذ مناجاتـك وأوردنـا حيـاض حبـك وأذقنا حلاوة ودك وقربك واجعل جهادنا فيك وهمنا في طاعتـك وأخلص نياتنا في معاملتك ، فإنا بك ولك ولا وسيلة لنـا إليـك إلا أن)(2)

وثامنها مناجاة المريدين، وهي مناجاة التوجه الصادق للـه، والإرادة الخالصة له، والـتي عـبر عنهـا قولـه تعـالى في وصـف أصحاب رسـول اللـه ﷺ الصـادقين: ﴿وَاصْـبِرْ نَفْسَـكَ مَـعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَـهُ﴾ [الكهـف: 28]، وقـد عـبر السـجاد في هـذه المناجـاة عن معـنى هـذه الإرادة وحدودها ووجهتها، فقال ـ مخاطبا الله تعالى ـ: (فـأنت لا غـيرك مـرادي ولـك لا لسـواك سـهري وسـهادي ولقـاؤك قـرة عيـني ووصلك مـنى نفسـي وإليـك شـوقي وفي محبتـك ولهي ، وإلى هواك صبابتي ورضـاك بغيـتي ورؤيتـك حـاجتي وجـوارك طلـبي وقربك غاية سؤلي ، وفي مناجاتك روحي وراحتي وعنـدك دواء علتي وشفاء غلتي وبرد لوعـتي وكشـف كربـتي ، فكن أنيسـي في وحشتى ومقيل عـثرتي وغـافر زلـتي وقابـل توبـتي ومجيب دعـوتي وولي عصـمتي ومغـني فـاقتي ، ولا تقطعـني عنـك ولا تبعـدني منـك يـا نعيمي وجنـتي ويادنيـاي وآخـرتي يـا أرحم الراحمين)(3)

وتاسـعها مناجـاة المحـبين، وهي مناجـاة ممتلئـة بمعـاني المحبة لله، والشوق إليه والأنس به، وهي تضع صاحبها المدمن عليها في تلك المقامات العاليـة الـتي هي غايـة آمـال العـارفين

1() بحار الأنوار: 94 / 146..

2() بحار الأنوار: 94 / 147..

3() بحار الأنوار: 94 / 147.

المحققين، والتي عبر عنها الله تعالى بقوله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة: 54].. يقول السجاد في هذه المناجاة: (إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولا ، إلهي فاجعلنا ممن اصطفيته لقربك وولايتك وأخلصته لودك ومحبتك وشوقته إلى لقائك ورضيته بقضائك ومنحته بالنظر إلى وجهك وحبوته برضاك ، وأعذته من هجرك وقلاك وبوأته مقعد الصدق في جوارك وخصصته بمعرفتك وأهلته لعبادتك ، وهيمت قلبه لإرادتك واجتبيته لمشاهدتك واخليت وجهه لك وفرغت فؤاده لحبك ورغبته فيما عندك وألهمته ذكرك وأوزعته شكرك وشغلته بطاعتك)(1)

وعاشرها مناجاة المتوسلين، وهي مناجاة يتوسل فيها الإمام زين العابدين لله تعالى بفضله وعطفه ورأفته وأسمائه الحسنى، ويستشفع فيها بالنبي ﷺ .. يقول فيها: (إلهي ليس لي وسيلة إليك إلا عواطف رأفتك ولا لي ذريعة إليك إلا عوارف رحمتك وشفاعة نبيك نبي الرحمة ومنقذ الامة من الغمة ، فاجعلهما لي سببا إلى نيل غفرانك وصيرهما لي وصلة إلى الفوز برضوانك ، وقد حل رجائي بحرم كرمك وحط طمعي بفناء جودك فحقق فيك أملي واختم بالخير عملي واجعلني من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنتك وبوأتهم دار كرامتك وأقررت أعينهم بالنظر إليك يوم لقائك وأورثتهم منازل الصدق في جوارك)(2)

والحادية عشرة منها مناجاة المفتقرين، والتي يعبر فيها الإمام السجاد عن معنى الافتقار الخالص لله، والذي هو ذروة مقام المعرفة والتحقيق، وهو أساس كل القيم والأخلاق الرفيعة، يقول فيها السجاد: (إلهي كسري لايجبره إلا لطفك وحنانك وفقري لايغنيه إلا عطفك وإحسانك وروعتي لايسكنها

1() بحار الأنوار: 94 / 148.

2() بحار الأنوار: 94 / 149..

إلا أمانك وذلتي لايعزها إلا سلطانك وأمنيتي لايبلغنيها إلا فضلك وخلـتي لايسـدها إلا طولـك وحـاجتي لايقضـيها غـيرك وكـربي لايفرجـه سـوى رحمتـك وضـري لايكشـفه غـير رأفتـك وغلـتي لايبردها إلا وصـلك ولوعـتي لايطفيهـا إلا لقـاؤك وشـوقي إليـك لايبلـه إلا النظـر إلى وجهـك وقـراري لايقـر دون دنـوي منـك ولهفـتي لايردهـا إلا روحـك وسـقمي لايشـفيه إلا طبـك وغمي لايزيله إلا قربك وجرحي لايبرئه إلا صفحك ورين قلـبي لايجلـوه إلا عفوك ووسواس صدري لايزيحه إلا أمرك..)(1)

والثانية عشرة منهـا مناجـاة العـارفين، وهي مناجـاة تـدل على المنهج الحقيقي للتعرف على اللـه، وهـو التوجـه الخـالص إليه، فلا يعرف بالله إلا الله، ولا يضع بذور الإيمـان والمحبـة في القلب غيره، كما قال تعـالى: ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُـوبِهِمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْـهُ ﴾ [المجادلـة: 22].. يقـول السـجاد في هـذه المناجاة: (إلهي قصرت الالسن عن بلوغ ثنائك كما يليق بجلالك وعجزت العقول عن إدراك كنه جمالك وانحسـرت الابصـار دون النظر إلى سبحات وجهك ولم تجعل للخلق طريقا إلى معرفتك إلا بـالعجز عن معرفتـك ، إلهي فاجعلنـا من الـذين ترسـخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم وأخـذت لوعـة محبتـك بمجـامع قلـوبهم ، فهم إلى أوكـار الافكـار يـأوون وفي ريـاض القرب والمكاشفة يرتعون ومن حياض المحبة بكأس الملاطفـة يكرعـون وشـرايع المصـافات يـردون ، قـد كشـف الغطـاء عن أبصارهم وانجلت ظلمة الريب عن عقائدهم وضمائرهم وانتفت مخالجـة الشـك عن قلـوبهم وسـرائرهم وانشـرحت بتحقيـق المعرفة صدورهم..)(2)

والثالثة عشـرة منهـا مناجـاة الـذاكرين، وهي مناجـاة تعلم الذاكر لله آداب الذكر والحضورمع اللـه، وتـبين قيمتـه وأهميتـه ودوره في التحقق بمعرفة الله، يقول فيها السـجاد: (إلهي لـولا الواجب من قبول أمرك لنزهتك عن ذكري إياك على أن ذكـري

---

(1) بحار الأنوار: 94 / 149.

(2) بحار الأنوار: 94 / 150.

لك بقدري لابقدرك وما عسى أن يبلغ مقداري حتى أجعل محلا لتقديسك ومن أعظم النعم علينا جريان ذكرك على ألسنتنا وإذنك لنا بدعائك وتنزيهك وتسبيحك ، إلهي فألهمنا ذكرك في الخلاء والملاء والليل والنهار والاعلان والاسرار وفي السراء والضراء وآنسنا بالذكر الخفي واستعملنا بالعمل الزكي والسعي المرضي وجازنا بالميزان الوفي ، إلهي بك هامت القلوب الوالهة وعلى معرفتك جمعت العقول المتباينة فلا تطمئن القلوب إلا بذكرك ولا تسكن النفوس إلا عند رؤياك ، أنت المسبح في كل مكان والمعبود في كل زمان والموجود في كل أوان والمدعو بكل لسان والمعظم في كل جنان ، وأستغفرك من كل لذة بغير ذكرك ومن كل راحة بغير أنسك ومن كل سرور بغير قربك ومن كل شغل بغير طاعتك..)[1]

والرابعة عشرة منها مناجاة المعتصمين، وهي ترجمة لكل ما ورد في القرآن الكريم من الدعوة إلى اللجوء إلى الله، والفرار إليه، والاستعاذة به، والتحصن في حصونه.. يقول فيها السجاد: (اللهم يا ملاذ اللآئذين ويامعاذ العائذين ويامنجي الهالكين ويا عاصم البائسين وياراحم المساكين ويا مجيب المضطرين ويا كنز المفتقرين وياجابر المنكسرين ويامأوى المنقطعين ويانا صر المستضعفين ويامجير الخائفين ويامغيث المكروبين وياحصن اللا جئين ، إن لم أعذ بعزتك فبمن أعوذ وإن لم ألذ بقدرتك فبمن ألوذ؟ وقد ألجأتني الذنوب إلى التشبث بأذيال عفوك وأحوجتني الخطايا إلى استفتاح أبواب صفحك ودعتني الاسأة إلى الاناخة بفناء عزك وحملتني المخافة من نقمتك على التمسك بعروة عطفك ، وما حق من اعتصم بحبلك أن يخذل ولا يليق بمن استجار بعزك أن يسلم أو يهمل؟..)[2]

والخامسة عشرة منها مناجاة الزاهدين، وهي مناجاة يستعيذ فيها السجاد من الدنيا وإغرائها وتلاعبها بأهلها، وهي

1() بحار الأنوار: 94 / 151..

2() بحار الأنوار: 94 / 152..

تعلم المدمن عليها التالي لها قيمة الزهد وأهميته ودوره في السير التحققي والتخلقي، يقول فيها السجاد: (إلهي أسكنتنا دارا حفرت لنا حفر مكرها وعلقتنا بأيدي المنايا في حبائل غدرها فإليك نلتجي من مكائد خدعها وبك نعتصم من الاغترار بزخارف زينتها فإنها المهلكة طلابها المتلفة حلالها المحشوة بالآفات المشحونة بالنكبات ، إلهي فزهدنا فيها وسلمنا منها بتوفيقك وعصمتك وانزع عنا جلابيب مخالفتك وتول أمورنا بحسن كفايتك وأوفر مزيدنا من سعة رحمتك وأجمل صلاتنا من فيض مواهبك ..)(1)

هذه مجرد نماذج ومقتطفات قليلة جدا بجنب ذلك التراث الكبير الذي تركه لنا السجاد، وتركته لنا العترة الطاهرة من أدعية وأذكار ومناجاة.. كلها تمتلئ بالمعاني السامية الرفيعة..

وهي جميعا تخلو من كل تلك الأكاذيب التي يروجها المتطرفون من أنها تتعرض للصحابة أو لغيرهم بالطعن والإساءة.. بل إنها على العكس من ذلك، فمن الأدعية الواردة في الصحيفة السجادية، والتي لا يزال يرددها الشيعة اقتداء بإمامهم السجاد ذلك الدعاء المخصص للصحابة.. لا لصحابة النبي ﷺ فقط، بل لصحابة جميع الأنبياء عليهم السلام، وهو الدعاء المسمى [الصلاة على أتباع الرسل و مصدقيهم]، وفيه يقول السجاد: (اللهم وأتباع الرسل ومصدقوهم من أهل الأرض بالغيب عند معارضة المعاندين لهم بالتكذيب والاشتياق إلى المرسلين بحقائق الايمان . في كل دهر وزمان أرسلت فيه رسولا، وأقمت لأهله دليلا، من لدن آدم إلى محمد صلى الله عليه وآله من أئمة الهدى، وقادة أهل التقى على جميعهم السلام، فاذكرهم منك بمغفرة ورضوان. اللهم وأصحاب محمد خاصة الذين أحسنوا الصحابة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكانفوه وأسرعوا إلى وفادته وسابقوا إلى دعوته واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالاته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء و الأبناء في تثبيت نبوته، وانتصروا به ومن كانوا منطوين على محبته يرجون تجارة لن

1() بحار الأنوار: 94 / 152..

تبـور في مودتـه، والـذين هجـرتهم العشـائر إذ تعلقـوا بعروتـه، وانتفت منهم القرابات إذ سـكنوا في ظـل قرابتـه فلا تنس لهم اللهم ما تركوا لـك وفيـك، وأرضـهم من رضـوانك وبمـا حاشـوا الخلق عليك، وكانوا مع رسولك دعاة لك إليك، واشــكرهم على هجـرهم فيـك ديـار قـومهم، وخـروجهم من سـعة المعـاش إلى ضيقه، ومن كثرت في إعزاز دينـك من مظلومهم)(1)

وهكــذا نجــد فيهــا الــدعاء للتــابعين لهم بإحســان، يقــول السجاد: (اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين يقولون : ربنا اغفر لنـا ولاخواننـا الـذين سـبقونا بالايمـان خـير جزائـك، الذين قصدوا سمتهم، وتحـروا وجهتهم، ومضـوا على شـاكلتهم، لم يثنهم ريب في بصيرتهم، ولم يختلجهم شك في قفو آثــارهم والائتمــام بهدايــة منــارهم، مكــانفين ومــوازرين لهم، يــدينون بدينهم، ويهتدون بهديهم، يتفقون عليهم، ولا يتهمونهم فيمـا أدوا إليهم. أللهم وصل على التابعين من يومنا هـذا إلى يـوم الـدين، وعلى أزواجهم، وعلى ذريـاتهم، وعلى من أطاعـك منهم صـلاة تعصــمهم بهــامن معصــيتك، وتفســح لهم في ريــاض جنتــك، وتمنعهم بها من كيد الشيطان، وتعينهم بهـا على مـا اسـتعانوك عليه من بر، وتقيهم طوارق الليل والنهار إلا طارقا يطرق بخير، وتبعثهم بها على اعتقاد حسن الرجـاء لك، والطمع فيما عنـدك، وترك النهمة فيما تحويه أيـدي العبـاد لـتردهم إلى الرغبـة إليـك والرهبة منك، وتزهـدهم في سـعة العاجـل وتحبب إليهم العمـل للاجل، والاستعداد لما بعد الموت وتهون عليهم كل كـرب يحـل بهم يوم خـروج الانفس من أبدانها ، وتعافيهم مما تقع به الفتنة من محذوراتها، وكبة النـار وطـول الخلـود فيهـا، وتصـيرهم إلى أمن من مقيل المتقين) (2)

لكن التكفيريين للأسف لا ينظروف لمئات الأدعية الممتلئة بمثل هذه المعـاني السـامية، ويـذهبون إلى بعض الأدعيـة الـتي ورد الخلاف في شأنها، وهي لا تشـكل إلا جـزءا ضـئيلا جـدا من

1() الصحيفة السجادية (ص: 39)

2() الصحيفة السجادية (ص: 40)

ذلك التراث العظيم من المعاني التحققية والتخلقية..

وحتى تلك التي يشيرون إليها ليس فيها أي تصريح بأي اسم من الأسماء، بل هي تشير إلى وجود من سعى إلى تغيير الدين وتبديله وتحريفه وتشويهه.. وكل ذلك صحيح وإن وقع الخلاف في المصاديق.

لكن التكفيريين لا ينظرون إلى كل ذلك، ولا يهتمون به، لأن هدفهم ليس التحقق ولا التخلق، وإنما هدفهم تفريق الأمة وتشتيتها، ولو بحرمانها من ذلك التراث العظيم الذي أوصى رسول الله ﷺ بأصحابه، ودعا إلى التمسك بهم، والاهتداء بهديهم.

عندما نتخلص من قيود المذاهب

سـأقص عليكم قصـة تتعلـق بي، أعلم أنهـا لن تنـال رضـا الكثير منكم، ولكني مضطر إلى حكايتها، باعتبارها تجربة نجحت بالنسبة لي، وقـد تنجح معكم، ولـو أن فيهـا مـا ترونـه اجتماعـا للأضداد..

وقصتي التي لا تحوي أي عقدة في ذاتها، ولكنها قد تسبب ألف عقدة لمن قرأها من المقيـدين بقيـود المـذاهب، هي أنـني في يوم من الأيام آنست من قلبي وحشة وغفلـة.. فقـررت أن أجري دورة لروحي لتتطهر من أدران السموم التي علقت بها.

وكانت هـذه الـدورة تشـمل سـماع بعض السـور القرآنيـة المرتلة والمجودة.. وكان منهـا سـماع بعض الأدعيـة بالأصـوات الرقيقة العذبة.. وكان منهـا سـماع بعض الـدروس والمواعـظ.. وكان منها سماع بعض القصائد والأناشيد الروحية.

وقـد اخـترت من القـراءات المجـودة قـراءة الشـيخ عبـد الباسط عبد الصمد التي تعجبني كثـيرا.. لكنهـا لم تـرو ظمـئي، فأضـفت إليهـا بعض تـرتيلات الشـيخ عـامر الكـاظمي بالمقـام العراقي الحزين.. والتي تملأ القلب بروحانية عجيبة.

وبعد أن تـزودت من القـرآن الكـريم حنت نفسـي لسـماع بعض الدروس والمواعظ.. فبـدأت بسـماع بعض دروس الشـيخ محمد سعيد رمضان البوطي المتعلقة بشرحه للحكم العطائية.. وبعدها استمعت لبعض دروس الشيخ تقي مصباح اليزدي حـول التقـوى.. وأتبعتهـا ببعض بصـائر الشـيخ محمـد تقي المدرسـي وتدبراته السامية الراقية للقرآن الكريم.

في وقت الراحة رحت أستمع للشيخ محمود الدرة والإخوة أبو شعر في بعض الحضرات الصوفية الممتلئة بالذكر الممـتزج بالسماع الروحي، ولم أشعر بنفسي إلا وأنا في الحضـرة معهم أردد ما يرددون، ولعلي أجد ما يجدون.. بعدها اسـتمعت للشـيخ حسين الأكرف إنشاده للقصيدة الرائعة [أنا مفتون في هواك]..

وختمت ذلك بـأوبيرات رائعـة لبعض إخواننـا البحرينـيين بعنـوان [إحرام الشهادة]

بعد أن شعرت بقرب كبير من الملأ الأعلى طمعت نفســي في أن أرفـع يـدي بالـدعاء للـه في ذلـك الحين.. وكـان أقـرب الأدعية إلى قلبي مناجيات السجاد، فـرحت أسـتمع لهـا بصـوت ميثم التمار.. واستمعت معها لبعض ابتهالات الشيخ الكبير سـيد النقشبندي.

وبعد أن تمتع سمعي بما تمتع رحت أمتع بصري بمشـاهدة حصة علمية إيمانية من حصص [العلم والإيمان] للعالم العـارف الكبير الدكتور مصطفى محمود، وبعدها حلقة جميلة من حلقات [أهـل الكهـف] للمخـرج الكبـير المبـدع المرحـوم فـرج اللـه سلحشور.

لست أدري كيف شعرت بعد هذه الخلطـة الرائعـة بصـفاء روحي كبير.. وتخلصت من الكثير من السموم التي كـانت تجثم على قلبي..

لست أدري هـل كـان سـبب ذلـك هـو أنـني اسـتفدت من الجميـع من غـير نظـر لـرؤاهم ومـذاهبهم وتوجهـاتهم؟ .. أم أن ذلك بسبب تلك المعاني العظيمة التي تحدث بها الجميع مـع أن مذاهبهم وتوجهاتهم ورؤاهم مختلفة؟.. أم أن الله الكريم الجواد وهبني بفضله تلك الرقة لصـفاء قلـبي وسـلامتي عليهم جميعـا، ففضل الله لا يؤتى إلا للقلوب التي لا تحمل حقدا ولا حسدا ولا بغضا ولا كبرا؟

هـذه قصـتي .. ويمكنكم أن تجربوهـا .. لعلنـا نخـرج من القواقـع الـتي سـجنا أنفسـنا فيهـا لننفتح على أنفسـنا أولا.. ثم ننفتح على العالم.. ثم ننفتح على الكـون جميعـا .. فبقـدر سـعة أوعيتنا يتنزل علينا فضل ربنا.